أسرار الحملة على مصر

وضعه الصحفيان الفرنسيان

ميري وسيرج برومبرغر

دار العلم للملايين

بيروت

أسرار الحملة على مصر

وضعه الصحفيان الفرنسيان

ميري وسيرج برومبرغر

دار العلم للملايين
بيروت

تمهيد

لم يدرك الجمهور غير القليل من الحقائق عن الجهود الضخمة التي بذلت لتحقيق عمليات انزال الجيوش الحديثة في الاراضي المصرية والتي كانت قواعدها الافرنسية في مرسيليا والجزائر على مسافة ثلاثة آلاف كيلو متر من ارض المعركــــة . وكانت قواعدها البريطانية في لندن وجزيرة مالطة على مسافة ٤٥٠٠ كيلو متر و ١٥٥٠ كيلومتراً من ارض مصر .

كما ان معرفته بحقيقة المساعدة الافرنسية المقدمة الى إسرائيل في صحراء سينا ضئيلة جداً . هذا بالاضافة الى السفينة الذرية الحربية (كيرسانت) التى اشتركت مع السفن الاسرائيلية في القبض على المدمرة الصغيرة ابراهيم الاول .

على ان هذا كله كان بداية النجدة الممنوحة لدافيد بن غوريون

في معركته العدوانية ضد مصر .

لقد قدمت الحكومة الفرنسية الى إسرائيل طائرات نافورية قادرة على مقابلة طائرات ميغ واليوشين التي يستعملها عبد الناصر. كما اقرضتها الاسلحة التي سمحت لها بتحقيق اغراضها الخاصة .

لقد منحتها مجناً ذا فاعلية ضخمة . فجاءت مجموعات من الطائرات الافرنسية تحط في مطارات اسرائيل منذ بداية الهجوم العدواني الذي قام به موشى دايان .

لقد خرقت قنابل مدفعية « جورج ليج » تحصينات المقاومة في رفح ، والخنادق المصرية التي بنيت بناء مكيناً وزودت بكل اسباب الدفاع وراء مدينة غزة . اما الطائرات المطاردة القاذفة الافرنسية ، فقد هاجمت قوافل المصريين العسكرية في تحركاتها فوق سيناء . وهي التي كانت تعمل بطلب من الجنرال موشى دايان دون ان تندمج في قواته ، في الوقت نفسه الذي ترتبط فيه بقيادة الجنرال (بروهون) في قبرص . بينما كانت الطائرات المنطلقة من قواعدها في قبرص تطلق رصاص مدافعها الرشاشة على السيارات المدرعة في منطقة الدلتا . لقد لعبت هذه القوات دوراً ناجحاً ضد الطوابير المدرعة التي كانت تتجه من القاهرة الى الجبهة في اليوم الثاني من ايام المعركة .

اما القوات الاسرائيلية التي كانت تنطلق عبر صحراء سينا دون زاد تتزود به ، فقد كانت تتلقى من السماء خزانات الوقود والماء وسيارات الجيب وكثيراً من الذخيرة تستعين بها على متابعة السير وتنفيذ مغامرتها العدوانية . ولولا هذه

النجدات التي ارسلتها القوات الفرنسية من الجو اعجز الجنرال موشي دايان عن تحقيق الخطوات التي قام بها حتى اصبح قريباً من قناة السويس .

ومن الحق ان يقال انهذه النجاحات المسجلة ما كانت لتحقق لولا المساعدات الضخمة التي أمنتها القوات الافرنسية بالاضافة الى الحماية التي منحتها لمدن اسرائيل المفتوحة . فهيأت جـواً من الارتياح والهدوء والطمأنينة للاسرائيليين .

ولم يتردد الجنرال دايان في الاعراب عن شكره وتقديره للخدمات العسكرية الضخمة التي منحت له من قبل الافرنسيين . حتى ان السفير الاسرائيلي قد توجه في السابع والعشرين من كانون الاول ١٩٥٦ الى قصر رئيس حكومـــة الجمهورية الافرنسية ليرفع شكر بلاده الرسمي على المساعدات المجانيـة الضخمة التي قدمتها فرنسا اليها .

لقد أعد كل ما يتعلق بهذه الحملة الضخمة بسرية تامة . ولكن قوات الافرنسيين والبريطانيين لم تكد تضع اقدامها على الارض المصرية حتى استسلمت لندن امام ضغط المعارضة المنظم الذي زحمها وأرهقها من كل مكان :

لقد كان ما حدث فشلاً ذريعاً . كان فشلاً اصابته امتان قديمتان . اما الجماهير فقد تركز اهتمامهـــا في حوادث المجر . وغرقت الحملة ضد مصر في خضم من النسيان .

ومهما تكن الجهود الضخمة التي بذلت من قبـل المجريين

للتحرر من السوفيات فان مصير الغرب كان مرتبطاً بالشرق الاوسط فقط .

لقد كانت الحقائق الجارحة خفية ضائعة قبيل هذه الحملة . واني لاذكر فقرات من كلمات اندريه لابارت قرأتها في الطائرة العسكرية التي كانت تقلني الى قبرص ، صور بها حقيقة الوضع ، ورسم ظلمة المصير . تحدث فيها عن وقود سياراتنا وزيت مدافئنا وطاقة مصانعنا . تحدث عن كل شيء حتى عن وقود شاحنات اللبن التي تحمله الى اطفالنا ، وتحدث عن دماء حياتنا اليومية .

كانت هي المرة الاولى التي اشهد فيها هذه الحقائق . وقد يكون من الصعب علينا ، ان نعترف بوجود حبل في رقابنا ، حفاظاً منا على كرامتنا القومية .

ومما يزيد الوضع حرجاً وصعوبة ان نرسل النذير الى الرأي العام الاوروبي وان نهيئه لاستقبال مثل هذه الحملة التي تحتاج الى صمت وسرية تامين . ان هذا الصمت الذي احاط بالحملة ، قبيل بدايتها وبعدها وخلالها ، هو الذي يبرز طبيعة المأساة الاساسية فيها . وتعقيد الاوضاع هو الذي كان يدفع الى مزيد من السرية والصمت .

كانت الحكومة البريطانية حتى منتصف تشرين الاول عازمة على ضرب اسرائيل بالقنابل دفاعاً عن الاردن الذي كانت تسابق فيه عبد الناصر وتباريه في تقديم الحماية لهذا البلد الصغير :

ولكن باريس ولندن لم تنقطعا عن التشاور الدائم منـــذ المفاجأة الضخمة التي قابلهما بها عبد الناصر في ٢٦ تموز ١٩٥٦ . وقد اعلنتا في مناسبات مختلفة عن امكانية استعانتهما بالاسلحة بعد فشل المفاوضات الدولية التي كانت تدور يومذاك بـــين مختلف الفرقاء .

لقد كانتا تعدان حملة عسكرية واسعة ؛ والتي كان خطأها انها قد ظهرت بقسوتها التـــامة ، في الفترة التي غضبت خلالها الجماهير الافرنسية والبريطانية بعد القهقهة العريضة التي انطلقت من الاسكندرية ، فأزبدت وارعدت وطالبت حكامها بالرد العاجل السريـع .

لقد كان ثلاثون من الضباط الافرنسيين والبريطـانيين يجتمعون يومئذ في أقبيـة تحت نهر التاميز لتهيئة خطط الغزو وتعديلها وانتقادها وادخال تغييرات مستمرة عليها ، دون ان يدري أحد بهـا اللهم غير الملكة ورئيس الوزراء في لندن ثم رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء ووزير الدفـاع في باريس . لكن الثابت انه لم يصدر ابداً قرار نهائي مشترك لتنفيذ الخطة (A) والاتفاق على يوم (صفر)

لقد كان غي موليه وبورجيس مونوري وكريستيان بينو خصوماً أشداء لمونيخ شرقية . ولكن الحكومة الاشتراكية الافرنسية مصممة على العمل بالتعاون مع البريطانيين بحيث تحقق الامنية التي طالما سعى اليها غي موليه في خلق (اوروبا) موحدة .

وفي هذه الاثناء كان إيدن عاجزاً عن اتخاذ قرار نهائي . تضايقه واشنطن ، وتحذره بلدان الكومنولث خوفـــاً من اغلاق القناة ومن ويلات الحرب. ويشتد عليه العمال المعارضون: كما يشترك في المعارضة بعض من وزراء حكومته . لهذا كله كان يرجيء باستمرار اعطاء قرار نهائي فيما يتعلق بطبيعة الحملة وتحديد زمانها .

وفي هذه الاثناء كانت اسرائيل ، التي تشهد ائتلاف العرب وتجمعهم تجد نفسها كالفأرة في المصيدة . يهددها العرب بالابادة. فتحرق الارّم على ما اصابها وتطالب بالاسلحة. اما فرنسا التي كانت تجد نفسها في حالة حرب مع عبد الناصر في ميدان الشمال الافريقي وتشهد اختناقها بعد وضع اليد على قناة السويس ، وهي شريان حياة الاوروبيين فانها لم تجد مبرراً لترددها في انجاد الدولة الاسرائيلية الهزيلة .

ولم تكد اسرائيل تتسلم الاسلحة الضخمة حتى قررت الهرب الى الامام . اي قررت القيام بهجوم وقائي .

لم تكن باريس وتل ابيب بحاجة الى حلف مكتوب يجمعها: فقد جمعتهما الاحداث .

لقد رأى بعض السياسيين ان احتلال اسرائيل للضفة اليسرى من قناة السويس ، جدير بخلق وضع جديد يساعدهم على اقرار الصبغة الدولية لهذه القناة . لقد كانوا يستهدفون بخططهم جعل قناة السويس قناة دولية بحكم الواقع واجبار هيئة الامم المتحدة

على اتخاذ تسوية نهائية في هذا الاتجاه .

ولما تأكد بن غوريون من عزم الافرنسيين على مساعدته قرر الابتداء بالعمل . وتولى غي موليه نقل هـــذا القرار الى إيدن .

وهكذا وجد ايدن نفسه في موقف حرج . فقد فاجأه الخبر . وهو الذي كان مصمماً على ضرب اسرائيل بالقنابل فيما اذا اعتدت على الاردن . كما ان مثل هذا التصميم قد يحمي في نظره ، عبد الناصر ، وهو خصم له . لقد كان موقف الحكومة البريطانية في الشرق الاوسط من التعقيد بحيث كاد ايدن يعجز عن تنظيم افكاره . حتى اذا تدخل احـد المندوبين الافرنسيين الجنرال شال ، ووضع يده اليسرى على سيناء التي ينتظر ان يحتلهـــا الاسرائيليون ويده اليمنى على الدلتا المصرية وقال :

الاسرائيليون هنا والمصريون هنا . فاين موقفنا نحن ؟

انه هنا في القناة التي يجب ان نحميها !

اجاب ايدن : فكرة حسنة .

وفي اليوم التالي انتقل الى باريس . وحضر مؤتمراً دام خمس ساعات كاملة تقرر في نهايته التدخل العسكري .

لقد كان البريطانيون غير راغبين في التدخل كحلفاء لاسرائيل؛ تلك كانت معضلتهم .

وبينما كان الافرنسيون يقترحون القيام بغزو ساحق سريع قبل توقف اطلاق النار في معركة القنال بساعات قليلة ، والذي

كان في نظرهم ممكناً سهل التحقيق بسبب وقوف الاسرائيليين على مسافة عشرة اميال من ضفة القناة، مما يجعل استخدام مدافعهم سهلاً يسيراً صرخ رئيس الوزراء البريطاني: « حسن جداً . مروا حلفاءكم الاسرائيليين بالتقدم ، بحيث نستطيع ان نقذفهم والمصريين معهم بقنابل طائراتنا القاذفة » .

وهكذا كان الافرنسيون يجدون انفسهم في موقف فريد يخوضون معركة مع حليفين متعاديين .

وبينما كان إيدن يصر على العمل كدركي في قناة السويس كان غي موليه يهيء حملة انزال واسعة مع البريطانيين لتحقيق احتلال كاسح .

اما هدف البريطانيين فهو هدف مزدوج النتائج فقد قصدوا من تدخلهم تقوية نفوذهم في الشرق الاوسط وقصدوا في الوقت نفسه كسب جمال عبدالناصر الذي لم يكن في نظرهم العدو الذي لا يسترضى كما هو في نظر الافرنسيين .

ولكن الافرنسيين قد استهدفوا السيطرة على القناة والقضاء على عبد الناصر ، عدوهم في الشمال الافريقي .

ففي الخطة البريطانية لا محل لاسرائيل . اما في الخطة الافرنسية فلا مانع من اشراك اسرائيل للقيام بجزء من هذه الحمله . او باجزائها كلها عند الضرورة .

اما الاسرائيليون فكانوا خصوماً لخطة الانزال في الارض المصرية كما سنرى من بعد . ولكنهم عجزوا عن اقناع الافرنسيين الذين اشتركوا في الجبهتين . بينما كان البريطانيون

مصرين على عدم الاعتراف بتعاون فرنسي يهودي . وطالما صرخ الجنرال ستوكول قائلاً : انني ساقطع رقبة ضابط الاتصـــال الاسرائيلي الذي يضع قدمه في قبرس .

كان تنفيذ الخطة العدوانية راجعـاً في الحقيقة الى عوامل مختلفة . منها ان ايدن كان يعتقد بحياد اميركا حياداً مشوباً بالعطف على خططه . وقـــد نشأ هذا الخطأ السيكولوجي منذ المحادثات الاولى التي اجراها كل من ايدن وبينو مع فوستر داليس بعد اعلان التـــأميم بصورة مباشرة . لقد انذرا وزير الخارجية الاميركيه بقولهما : ان مصير حلف الاطلسي معلق على موقف اميركا من لجوء الدولتين الاوروبيتين الى استعمال القوة ضد مصر .

فذكّرهما داليس بصدّق . ولكنهما لم يقتنعا بهذا الدفاع : ثم قال لهما داليس :

« مهما يكن الامر فان الضمانة الذرية لعاصمتيكما قائمة ابداً » : وهذا ما حدث فعلا بعد ان وجه بولغانين انذاره الذري الشهير . فقد حذر ايزنهاور خصمه بولغانين مؤكداً له : ان غزو باريس ولندن ايذان بحرب عالمية شاملة . وبقي ايدن مصراً على حسن ظنه بالموقف الاميركي حتى نهاية الجولة . رغم الجهود التي بذلها داليس لاقنـــاع رجلي بريطانيا وفرنسا للامتناع عن استعمال القوة المسلحة . هذا بالاضافة الى تأكده من ان الولايات المتحدة ستزوده وتزود فرنسا بالوقود اللازم بعد اغلاق قناة السويس من قبل عبد الناصر .

ومن خلال هذا الموقف السيكولوجي نشأت خطة القذف بالقنابل التي كانت ستقنع المصريين بتغيير حكومتهم واخراج رئيسهم عبد الناصر في رأي ايـدن . ولكن ايدن لم يستعمل الصواريخ ذات الاثر النفسي المنتظر . لقد كان يريد الوصول الى نتائج نفسية دون استعمال وسائلهـــا الضرورية . ولهذا ارسل التحذير الدوري الى رجال المطارات المصرية عن طريق اذاعة قبرس ودعي المدنيون في بور سعيد الى اخلاء منطقة الانزال . حتى ان البور سعيديين قـــد احتفظوا بهدوئهـم وزياراتهم التقليدية .

لقد ادرك ايدن خطأه بعد فوات الاوان ، بالنسبة لموقف الاميركيـين منه وبالنسبة الى الخطة التي اصر على تنفيذها في معركته ضد مصر . كما انه تجاهل تطور شخصية ايزنهاور الذي اصبح ابا السلام العطوف . وقطف سياسة اللاعنف في العالم . اما السيد بينو فقد فاجأ الاميركيين مفاجأة مزعجة قبل ذلك باشهر قليلة حين هدد بالانضمام الى الحياديين . فقام بزيارة نهرو وعرج على عبد الناصر في القاهرة . فما كان من ايزنهاور الا ان دعا اليه نهرو نفسه ليشركه في مشاهدة اسطبلاته والاعجاب بها ثم قدم الى عبد الناصر تأييده ومساعدته .

ولم يخطر في بال ايـــدن ان معركته في الشرق الاوسط ستكون بالنسبة الى الاميركيين المنهمكين في معركة الانتخابات قدحاً في ذات ايزنهاور . كما تجاهل قوة الشركات البترولية الاميركية العربية التي لا ترضى بأية محاولة عسكرية

قد تسيء الى مصالحها الاستعمارية في البلاد العربية .

وهكذا استطاع التعاون الاميركي الروسي ان يقضي على خطة الانزال منذ البداية . وبريطانية التي اعتادت ان تقبل الهزيمة في كل بداية لتستدرك ما فاتها في ربع الساعة الاخير لم تتشبث بالانتصار في هذه المرة .

كيف بدأت اسرائيل

العملية البريطانية الفرنسية

كان دوي المدافع في تمام الساعة الثالثة والنصف من بعد نصف الليل في ٣١ تشرين الاول ١٩٥٦ يلقي الذعر في مدينة حيفا . فالسماء تضطرب . والصفارات تنوح والنساء يدفعن أطفالهن الى الملاجيء والخنادق المحفورة في امكنة مختلفة من المدينة . ولكن سطوح المنازل قد امتلأت ايضاً بالفضوليين ممن ايقظهم الدوي ليتعرفوا الى مصدره ؟

الكل يتساءلون عن مصدر هذه الانفجارات . وقد اتيح لسكان جبل الكرمل ان يشهدوا نيران قذف المدفعية في الافق البعيد . ولكن واحدة من القنابل لم تسقط في وسط المدينة .

كان القلق الثقيل والخوف الراعب يخيمان في ارجاء المرفأ وبقية اجزاء البلاد الاسرائيلية . لقد كانت مدن اسرائيل على

موعد مع الموت . وكان الجميع ينتظرون ردة عبـــد الناصر ومجيء طائرات ميغ واليوشن التي تحتاج الى طيران عشرين دقيقة للوصول الى وسط اسرائيل وذلك بعد ان مر يومان على اجتياز مدرعات الجنرال موشي دايان للحدود الامرائيلية المصرية .

وكانت طائرات نفاثة كثيرة تحمل العلم المثلث الالوان تلأ سماء اسرائيل لتحميها من العدوان المنتظر . وفي شوارع حيفا سيارات كثيرة تحمل في احشائها شباناً غرباء بثياب مدنية . انهم الطيارون الافرنسيون الذين منعت الصحف الاسرائيلية من الاشارة اليهم .

كانت المدينة خالية من الرجال والشبان . كما أخلتها نساء وفتيات كثيرات . لقد صدر الامر بتجنيد سري سريع منذ ٢٥ تشرين الاول بحيث ان ربع السكان المدنيين قد جمعوا في معسكرات التجنيد .

وفي مساء امس كانت ثلاث قطع بحرية مجهولة الجنسيـــة تذرع البحر جيئة وذهاباً وتصوب مدافعها الى السماء . فسرت قشعريرة الخوف في نفوس الناس وظنوا انها قطع روسية وان الطائرات المصرية لن تلبث حتى تأتي لضرب مدينتهم بالتعاون مع هذه القطع .

ولكن ما حدث بعد ذلك كان غير ما يظنون . فقد انطلق السكان الى ارصفة المرفأ ليشهدوا سفينة مصرية صغيرة نسبياً تجرها سفينة جر اسرائيلية ومن ورائها طراد يحمل العـــلم

الافرنسي . ظهر بعملاقية وكأنه يهدد الشواطىء الفلسطينية . اما هذا الطراد الضخم فيدعى « كيرسانت » .

ثم اعلن النبأ بصورة رسمية وظهرت التفاصيل . وخلاصتها ان السفينة المصرية الحربية « ابراهيم الاول » قد خاضت معركة غير متكافئة مع سفن اسرائيلية متعددة تساعدهـــا طائرات « ميستير » الافرنسية. وقد دامت المعركة نصف ساعة عجزت بعدها السفينة المصرية عن متابعة اطلاق النار بسبب الثقوب الكثيرة التي اصابت دروعها في المقدمة والجوانب .

والحق ان النبأ الرسمي لم يكن صحيحاً . فقد كان هـذا الانتصار الاسرائيلي بفضل تدخل القوات الافرنسية وعونها الفعال . ولكن المصلحة كانت تقضي بابقاء هذا العون في طي الخفاء .

كانت السفينة الفرنسية « كيرسانت » وشقيقتاها « سوركوف وبوفا » قد ارسلت في مهمة خاصة الى شواطيء اسرائيـــل . والمهمة هذه خطيرة جداً ندركها تمام الادراك حين نعلم ان هذه السفن هي اوّل سفن ذرية الحقت بالاسطول الفرنسي . انها تستطيع بفضل الخطط التكنيكية الحديثة ان تمخر عباب بحر ملوث بالاشعاعات الذرية وان تنظف نفسها من هذه الاشعاعات كما انها مدرعة تدريعاً مزدوجاً يتيح لها مزيداً من المقاومـة ومزيداً من قوة الضرب والهجوم .

لقد تلقت هذه السفن امراً سرياً خلال اليوم التاسع والعشرين

من تشرين الاول لحماية الموانىء الاسرائيلية ضد غزو مصري محتمل . ولم يكن الانذار الفرنسي البريطاني قد وجه بعد الى الفريقين المتقاتلين . وكانت المبادرة هذه مبادرة فرنسية بحتة .

هذا بالاضافة الى مجموعات ثلاث من الطائرات النفاثـــة المطاردة والمطاردة القاذفة حطت في مطار اللد لتقي شاطىء اسرائيل الهزيل وارضها المكشوفة .

كانت السفن الافرنسية تقوم بجولات استكشافية في البحر الاسرائيلي حينما جاءها النبأ باقتراب اسطول مصري صغير . ولكنها لم تجد امامها غير سفن شراعية صغيرة وقطع تابعة للاسطول الاميركي السادس التي اتت الى الشاطىء لتحمل الجالية الاميركية وتجليها عن البر الاسرائيلي . لقد كان اقتراب الاسطول المصري الصغير في طي الخفاء وبحذر شديد .

والتحقت كورسوف وبوفا باسطول الافرنسيين والبريطانيين في قبرص بعد ان يئس الجميع من مجيء طائرات او سفن مصرية .

وفجأة سمع دوي المدافع واخترقت النيران حجب الليل الدامس . فوجدت كيرسانت نفسها عرضة لنيران كثيفة . فاتخذت موقف القتال بالسرعة اللازمة وانطلقت ترسل قذائفها الى مصدر النار .

كانت القنابل الافرنسية تتجمع شيئاً فشيئاً وتقترب من الهدف . ثم انطلقت طائرة (ميتيور) اسرائيلية فوجهت قذائفها الصاروخية الى السفينة المصرية فاصابتها اصابة بالغة .

وبعد ذلك بدقائق قليلة حملت موجات الراديو رغبة السفينة المصرية في الاستسلام . وكشفت عن هويتها واسمها فاذا بها السفينة المصرية « ابراهيم الاول » .

ولم يكد نظر قائد السفينة كيرسانت يقع على شبحها في الليل حتى ادرك انها احد الطرادين البريطانيين اللذين بناهما البريطانيون سنة ١٩٤٠م وباعوهما الى الملك فاروق سنة ١٩٥١ : الوزن ١٠٠٠ طن والطول ٥٥ متراً ..

ثم اتضح شبح السفينة المصرية اكثر فاكثر بعد ان انبلج الفجر . وقد رفع فوق ساريتها علم ابيض .

لقد اصبحت السفينة المصرية شلواً ممزقاً . ولم يكن استسلامها الا بعد اصابتها اصابة عنيفة مميتة . لقد اصيب فيها مركز القيادة . وكانت حصيلة الخسارة ثمانية قتلى وعدداً كبيراً من الجرحى .

أرسلت السفينة « كيرسانت » تقريرها الى الاميرالية « بالشيفرة » فاجابتها الاميرالية :

– تهانينا . والمطلوب هو الصمت !

كانت فرصة الجواب على الانذار الموجه الى مصر منتهية في تمام الساعة الرابعة من صباح ٣١ تشرين الاول ، ولكن الرئيس البريطاني ابى الا التأجيل في بداية التدخل وحدده في تمام الساعة السادسة والنصف من بعد ظهر هذا النهار .

وهناك سر آخر احاط بطائرات « الميستير » الفرنسية التي كانت تقدم الى الجيش الاسرائيلي في سيناء عوناً فعالاً في

معركة تتيح للبريطانيين والفرنسيين فرصة طالما تمنوها للنزول في ارض القناة .

ومرت فترة وجيزة بعد استسلام الطراد المصري فاقبل قاذف طوربيد اسرائيلي وجرارة بحرية اسرائيلية كانت السفينة كيرسانت تنتظرهما لتسلمهما الفريسة غنيمة باردة .

وبينما كان الاسرائيليون يتهيأون بفرح الاطفال لاستلام الجثة البحرية كانت قيادة السفينة الافرنسية تقول لهم بالانوار وموجات الراديو : « انكم انتم الذين قضيتم على السفينة المصرية فلا علاقة لنا بها ابداً » .

ودخلت السفينة المصرية مرفأ حيفا يواكبها مع ذلك مركب صغير تابع لكيرسانت دون ان يلحظه احد من الناس لولا ان ضابطاً من ضباط البحرية كان يجتاز الرصيف فاكتشف هوية المركب الصغير وقال : « ولكن هذا مركب فرنسي » .. فصرخ الجمهور :

ـ تعيش فرنسا !

وفي اليوم التالي ابحر الطراد « جورج ليج » الى شواطىء سيناء من قاعدته في قبرص للقيـــام بقذف هجومي فعال في هذه المرة .

واطلق الطراد الفرنسي اربعماية من قذائفه الضخمة عـــلى تحصينات المصريين في رفح . هذه التحصينات التي كانت ستؤخر تقدم سيارات الجنرال لاسكوف نحو قناة السويس . فدمرت هذه التحصينات او اضعفت مقاومتها بحيث اضطر المصريون

الى التراجع او الاستسلام .

وفي اليوم الذي يليه جاء المراسلون الافرنسيون الملحقون بالقوات العسكرية يزورون قاعدة « تيمبو » الجوية في قبرص حيث تجمع عدد وافر من جنود القفز بالمظلات . وفي ارض القاعدة اربعون من احدث واروع طائرات القفز قد وصلت امس الى قبرص مروراً بميناء برنديزي حيث اظهرت إيطاليا استياءها من هذا العمل خوفاً من ان تظهر شريكة للافرنسيين والبريطانيين في حملتهم على مصر . والملاحظ ان في وسع هذه الطائرات ان تطير مسافة اطول من سابقاتها وان تحمل كل منها ٣٥ رجلاً بالاضافة الى سيارة شحن او سيارة جيب مسلحة بمدفع ورشاش . هذا بالاضافة الى الاجهزة الدقيقة الرائعة التي تسهل عملية القذف مع ما تقتضيه من ترتيبات وجهود معقدة .

وقد اعلن قائد فرقة المظليين بفخر واعتزاز ان طائراته لم تكد تصل الى ارض قبرص حتى دخلت المعركة على اوسع نطاق . فحملت الى الاسرائيليين في سيناء خزانات المـــاء ومستودعات الوقود الصغيرة التي اتاحت لهم قدرة فعالة على متابعة الغزو والاسراع في تحقيق اهدافه . ومنع المراسلون منعاً باتاً من الاشارة الى هذه المساعدات الجوية . لقد كانت المراقبة دقيقة حذرة فحالت دون وصول اخبار التعاون الجدي بين الحلفـــاء والاسرائيليين الذين كانوا يفتحون لهم ابواب القناة .

وكم كانت دهشة المراسلين عظيمة حين انتقلوا بعد ساعة

فقط الى مؤتمر صحفي في مكتب معلومات الحلفاء في نيقوسيا واستمعوا الى التكذيبات التي اطلقها ناطق عسكري بريطاني امام صحفيين بريطانيين حين ألحوا عليه باسئلة عما يقال بشأن التعاون العسكري مع اسرائيل .

فاعلن قائلًا بحزم :

— « لا تعاون مطلقاً بين الجيش الاسرائيلي وقوات حملة الحلفاء . »

فعقب احد المراسلين : « ليس التعاون شيئاً ممكن الوقوع فقط . بل هو الزامي . »

وكان كيتلي القائد الاعلى لقوات الحلفاء يؤكد في كل مناسبة الا علاقة مطلقاً بين اسرائيل والحلفاء .

والواقع ان القائد الاعلى البريطاني كان صادقاً . انه لم يكن يعرف شيئاً عن الحقيقة . ومهما يكن من الغرابة في هذا الامر فان البريطانيين لم يكونوا على علم بالمساعدات الفرنسية التي كانت تقدم الى اسرائيل من جزيرة قبرص .

وكان عدد الضباط الافرنسيين الذين يعرفون سر هـذه المساعدات احد عشر فقط . وقد قررت هذه المساعدات بعيداً عن قيـادة الحلفـاء في مكتب وزير الدفـاع الافرنسي في باريس .

انه من المستحيل ان يبقى القائد الاعلى ، سيد قبرص والاجواء التي تحيط بها ، في جهل مطبق باهداف الطائرات التي كانت تقلع من مطارات تيمبو في قبرص قبيل عمليات الانزال .

لقد كان يتلقى التقارير العسكرية من اجهزة الرادار .

ومع ذلك فقد اعلن ايدن وسط الضجة المستنكرة التي ارتفعت في مجلس العموم ، ان الهجوم الاسرائيلي كان مفاجأة غير منتظرة للحكومة البريطانية .

اما الافرنسيون فقد كانت تكذيباتهم منصبة على ما ذكرته الانباء من قذفهم للمصريين في منطقة غزة وصحراء سيناء . وهي تكذيبات تحمل في طياتها كثيراً من المعاني وقليلاً من الصدق .

ولم يتحدث ايدن عن العون الدفاعي الذي يحتمل تقديمه الى اسرائيل ضد اية محاولة مصرية بطائراتها «الميغ والايليوشن» .

ولكن رجوع بعض المجموعات من الطائرات الافرنسية الى قواعدها في فرنسا حول العشرين من شهر تشرين الثاني قد خلق في الصحف البريطانية حملة عنيفة ضد انطوني إيدن .

وقد أسرّ بعض الطيارين لمراسل روتر بخبر اشتراكهم في دوريات عسكرية فوق سيناء قبل بداية تدخل الحلفاء . واعلن البعض الاخر اشتراكه في قذف الطوابير المصرية المدرعة .

أما مراسل الديلي اكسبرس فقد قام بتحقيق صحفي مع ضباط من قاعدة ديجون كانوا قد رجعوا حديثاً من تل أبيب وحيفا في العشرين من تشرين الثاني . فأخبروه ان من كان منهم في قاعدة تل أبيب كان يلبس الثوب العسكري، اما الذين كانوا في حيفا فقد كانوا بثياب مدنية . وانهم كانوا يشاركون في القيام بدوريات تغطية فوق المدن الاسرائيلية ، ودوريات استطلاع

فوق الحدود السورية والاردنية .

واعترف ضباط آخرون أنهم كانوا يطلقون مدافعهم الرشاشة على جنود ودبابات مصرية خلال الايام الستة التي سبقت عملية الانزال . وافتخر بعضهم بأنه أصاب طائرات مصرية من طراز ايليوشن كانت لاجئة الى الأقصر . لقد كشف هذا الاعتراف عن اشياء كثيرة . فالمعروف ان عشرين قاذفة نفاثة يقودها طيارون سوفياتيون قد هربت من مطارات منطقة الدلتا التي تعرضت لضرب شديد ، الى مناطق الجنوب لكي تكون بعيداً عن متناول المطاردات - القاذفة الفرنسية والبريطانية .

وفي ٢١ تشرين الثاني جاء سكرتير الدولة للقوات الجوية الفرنسية السيد لافورست يهنيء العسكريين الراجعين الى قواعدهم في ديجون وقال لهم امام الصحفيين : « لقد صفق الوطن كثيراً لاعمالكم الماجدة ، ولكنه لن يعترف بها كلها . »

ومع ذلك فان وزارة الدفاع قد كذبت في اليوم التالي ما قيل من أن قوات فرنسية قد شاركت في القتال الى جانب القوات الاسرائيلية .

ولكن هذه التكذيبات لم تحل دون تسرب خبر وجود الطائرات الفرنسية في أرض اسرائيل وقيامها بدور كلب الحراسة فوق مدن الدولة الهزيلة التي كانت مهددة بالزوال والابادة ؛ ثم هجماتها المتكررة على أهداف في الجنوب المصري ومرافقتها للقوات الاسرائيلية المعتدية .

وهناك بلاغ آخر يعلن عن وجود هيئة صيانة فرنسية

أرسلت للاشراف على طائرات « مبستير » التي تسلمتها اسرائيل من فرنسا .

فالثابت ان فرنسا قد سلمت اسرائيل ٢٤ طائرة مطاردة من طراز ميستير خلال شهر آب المنصرم ثم أعقبتها بعدد آخر لا يقل عن العدد السابق . ولم تكذب قيادة قبرس هذا النبأ .

ولكن عناد الحكومة والقيادة البريطانيين في انكار حوادث يستحيل اخفاؤها قد أثار في واشنطن ، وهيئه الامم المتحدة ، وبريطانيا العظمى نفسها ، بين المعارضين المتطرفين لحملة التدخل هذه - ومن بينهم عدد من النواب المحافظين وأعضاء حكومة ايدن ثم الصحف الاميركية ونسبة كبـــيرة من الصحف البريطانية المستقلة - حملةً شعواء لا هوادة فيها ، واتهاماً عنيفاً للسيد إيدن ومن ورائه الحكومة الفرنسية بالذات .

لقد كانت الفاظ « مؤامرة وتدبيرات مخجلة » ارفق ما استعمله هؤلاء المعارضون من كلمات لفضح الاتفاق السري بين الحليفين الغربيين واسرائيل !

واتهم غي موليه وايدن بصورة خاصة بأنهما قد نظما هذا الهجوم الاسرائيلي واصطنعاه ليجعلا منه مبرراً للقيام بدور بوليسي في القناة .

وهل يعقل ان يكون رئيسا الحكومتين الغربيتين جاهلين بحقيقة نيات اسرائيل ثم تتهيأ لهما الاسباب والظروف بحيث يستطيعان ان يرسلا الى مصر اسطولاً ضخماً من الطرادات والكاسحات وحاملات الجنود والطائرات المقاتلة والقاذفة ، ثم

القاذفة للجنود ؟

ان الحوادث كلها تثبت عكس ما يزعمان .

لقد أعلنت حكومتا باريس ولندن في مناسبات مختلفة ، بعد صدور قرار التأميم ، عن عزمهما على استعمال القوة واللجوء الى السلاح بعد فشل الوسائل السلمية . وكان قرار اسرائيل في مهاجمة مصر فرصة ذهبية استغلتها الحكومتان كل على طريقتها الخاصة لتنفيذ ما كانتا تحلمان بتحقيقه من استرجاع نفوذهما في القناة .

هذا ما آمن به الرأي العام في كل من فرنسا وبريطانيا . وليس شيء غير ذلك .

والمؤسف ان المبرر القانوني الذي تقدم به السيد انطوني ايدن الى مجلس العموم واعلن به الانذار الذي وجهه الى كل من مصر واسرائيل بالتحاجز على مسافة عشرة أميال من ضفتي قناة السويس ، كان مبرراً معقداً ظاهر التحيز كما كان مصدراً لمفاجأة غير سارة .

نعم لقد كان ايدن صادقاً فيما يقول ، ولكن قبل ذلك الوقت باسبوعين . وفي الساعة العاشرة من مساء اليوم نفسه أعلن غي موليه أمام المجلس الوطني الفرنسي وبعد رجوعه من لندن ، ما أعلنه ايدن خلال النهار . ثم أضاف الى ما زعمه من وجود الفرصة المناسبة التي أتاحتها اسرائيل ، والخطر الداهم على الملاحة في القناة ، الاسباب الاخرى التي كانت تدفع بالفرنسيين الى تصفية خلافهم مع عبد الناصر في مصر بعد قرار التأميم :

لقد حاول الرئيس البريطاني ان يبرز حياده التام في النزاع الاسرائيلي المصري. فكانت محاولته الفاشلة هذه سبباً في توكيد تحيزه وسبباً آخر في الحيلولة دون نجاح الحملة العسكرية – كما سنرى فيما بعد .

انه لمؤسف حقاً ان يكون السيد ايدن قد استغنى عن موقف الدفاع عن النفس ليتخذ موقف الشرطي الذي ينتهز فرصة نزاع يسترد به بعض ما أضاعه من المتاع .

لقد كان يقدم الى الرأي العام الدولي تبريراً لهجومه على مصر فكانت حجته في تبرير تدخله أشد إثارة للرأي العام الدولي من تدخله بالذات .

لقد طلب ايدن الى المتقاتلين ان يتحاجزوا على بعد عشرة أميال من قناة السويس . أي أنه طلب من مصر ان تتنازل عن حقوقها المشروعة في الدفـــاع عن سيناء وتقوية مواقعها العسكرية فيها والتنـازل عن ١٧٠ كيلو متراً من الاراضي المصرية ، وترك قواتها المتخلفة في السويس تحت رحمة العدوان الاسرائيلي. وقدم في الوقت نفسه الى اسرائيل ١٥٠ كيلومتراً من الاراضي المصرية غنيمة باردة تتصرف بها كما تشاء .

وكان من نتائج هذا الانذار المتحيز المفضوح أنه تعذّر على الحلفاء بعد ذلك بقليل ، ومن الناحية الادبية البحته ، أن ينجدوا القوات الاسرائيلية التي كانت قد بلغت الضفة الشرقية من القناة. ولو انهم فعلوا لحققوا شيئاً غير الذي حققوه . فقد اقترح ضباط الارتبـاط الاسرائيليون على الحلفاء ان يحتلوا القنطرة بعد ان

استولى مظليوهم على جسر جنوبي بور سعيد وان لم يعد بين الجيش الاسرائيلي والقنطرة غير رمية سهم واحدة .

ولكن الحلفاء الذين كانوا يختبئون وراء أصبعهم ويتظاهرون بالحياد التام بين الفريقين المتقاتلين قد أهملوا هذه الفرصة أيضاً باسم ما زعموه من ضرورة العدل بين الفريقين وهم الذين انتهكوا كل شريعة وعدالة حين منحوا اسرائيل بانذارهم ما لا يقل عن ١٧٠ كيلو متراً من أرض مصر .

في هذه الاثناء ، لم تكن الصحافة الفرنسية تظهر أي اهتمام لما يستهدفه السيد ايدن من عدم التحيز الظاهري لاسرائيل أو التعاون معها في عملية عدوانية مشتركة .

وفي صبيحة اليوم الذي انتهت فيه مدة الانذار ، أعلنت الصحافة الفرنسية عن حصول إنزال للجنود بصورة مباشرة ، بما لم يكن يتفق مع ما زعمه ايدن في مجلس العموم من أنه فوجيء بالعدوان الاسرائيلي على مصر .

ولم يدرك الرأي العام الفرنسي معنى التحايل القانوني الذي خرج به ايدن الى العالم الا بعد ان انفجر الرأي العام الدولي وثارت ثائرة هيئة الامم المتحدة .

كان البعض في فرنسا وبريطانيا يتساءلون ... واين وجه الغرابة في ان تتحالف فرنسا وبريطانيا مع اسرائيل لمقاتلة رجل بدأ يهدد كلًا منها بخطر داهم ؟

لقد خسرت فرنسا صفتها الدولية الاسلامية ، وهي التي تملك من المصالح في شمالي أفريقيا وغيره ، شيئاً كثيراً جداً ،

بعد ان انفجرت أمامها سلسلة من المعارك والحروب الضارية بسبب يقظة الشعور القومي عند العرب المسلمين ، بحيث انها فقدت صداقة هؤلاء واستعدادهم للتعاون معها. فغضبت وثارت ووقفت من الجزائر الموقف الذي يعرفه العـــالم . لقد أعلن عبد الناصر عليها حرباً عملية بمـا يرسله من اسلحة ويجهزه من معسكرات التدريب للمناضلين الجزائريين ، وما يمنحه من التشجيع المعنوي للارهـــابيين . لقد أصبح موقفه موقف المحارب .

وهكذا كان الواقعيون من الفرنسيين يتساءلون ... ومـا هي الفائدة من الوقوف موقف الحيـــاد الظاهري من النزاع الاسرائيلي المصري وقد كادت فرنسا تشرف على الهلاك بسبب قناة السويس ؟

لقد أصبح الرأي العام الفرنسي راضياً عن فكرة التدخل بالقوة منذشهر آب المنصرم ، مع العلم ان في هذا التدخل أخطاراً كثيرة.. فقد يغلق عبد الناصر القناة فيحول دون وصول الوقود الى فرنسا ، وقد يفقد الفرنسيون ممتلكاتهم في مصر وهي لا تقل عن ٤٠٠ مليار فرنك ، وقد يفقد المساهمون حقوقهم في التعويض عن أسهمهم في شركة القناة ، أو تتعقد عملية التعويض بعد أن أعلن عبد الناصر استعداده لدفع أثمان هذه الاسهم .

ومع هذا كله فقد تغلبت فكرة التدخل وزاد أنصارهـا زيادة كبيرة جداً .

وهناك شيء آخر لا يقل أهمية عما سبق [illegible] مصر المتطورة

كلها ، تتكلم الفرنسية . والمدارس الفرنسية العلمانية أو الدينية تستقبل أبنـــاء النخبة من المسلمين فتعلمهم . حتى أن وزراء عبد الناصر يرسلون أبناءهم الى الكليات الفرنسية . أما الصحف النـــافذة في مصر فهي التي تحرر باللغة الفرنسية . هذا كله قد يتعرض لخطر الفناء . ولكن العزاء عنه أنه لا يمكن أن يزول بالسرعة التي تزول بها عهود سياسية خاصة . فنفوذ اللغة والفكر بعيد الجذور عميق الاثر والقضاء عليه في حاجة الى أجيال كثيرة.

هذا كله قد جال في خاطر المعارضين لعملية التدخل . أما أنصار التدخل فقد اكّدوا ليلة عملية الانزال أن هذه المصالح كلها ستستنقذ مرة واحدة فيما اذا نجحت الحملة في القضاء عـــلى عبد الناصر . وهكذا تتنفس أوروبا الصعداء ، ويعود السلم الى ربوع الشرق الأوسط ، وتنتهي المأساة . أما معضلة القناة فتجد حلًا في تعويض عادل أو في عودة الى ادارة القناة مرة اخرى .

وبعد اجراء حساب دقيق ومعادلات طويلة بين الربـــح والخسارة تغلب أنصار التدخل على معارضيه .

ولكن الصمت الذي أحاط بالحملة لأسباب ستراتيجية بحتة قد سبب نكبة سياسية . فلم يعر هـــذا الصمت أية أهميـة للضرورات السيكولوجية في الحرب الحديثة التي هي قبل كل شيء حرب دعاية .

إن هناك أسباباً منطقية خاصة لهذه السرية التي احيطت بها عملية التدخل ، هذه العملية التي ظهرت من بعد أمـام الرأي العام ، جريمة حيكت في الخفاء .

لقد وجدت الحكومة الفرنسية نفسها ، ليلة التدخل في المعركة ، في موقف حرج . لقد كانت بين حليفين يتجاهل كل منهما الآخر .

درس موليه مع أميركا وبريطانيا عملية التدخل هذه . ولما وقفت أميركا منها موقف الخصومة الشديدة هيأ الحملة بالتعاون مع ايدن فقط .

وفجأة أعلنت إسرائيل لباريس عن عزمها على القيام بهجوم على مصر لحسابها الخاص في أواسط تشرين الاول بعد أن كانت قد وافقت على تأميم القناة .

فتبنت فرنسا هذا الحليف الجديد ، ورفضت بريطانيا ، حليفة الدول العربية ، أن تعترف به . فاسرائيل بالنسبة الى ايدن ، الذي أسس جامعة الدول العربية ، مـــا تزال الدولة العدوة ، التي كان ايدن نفسه يهدد بضربها بالقنابل قبيل ذلك بقليل في حالة اعتدائها على المملكة الاردنية أو العراق .

وهكذا كانت فرنسا تعدّ معركتين في الوقت نفسه ضد عبد الناصر ، مستندة الى حليفين متحاجزين بل متعاديين .

لقد كانت لأيدن حجج قوية في عدم التعاون مع اسرائيل. أما فرنسا فلم يكن لها شيء من ذلك . فبريطانيا لا تملك الجزائر ، واسباب تدخلها في المعركة ليست هي أسباب التدخل الفرنسي ، والقناة بالنسبة اليها شريان الحياة كما هي بالنسبة الى فرنسا ، يضاف الى ذلك انها الطريق الرئيسي لبلدان الكومنولث . وقد جرت العادة ان ينظر الى الكومنولث على انه عزاء لقلب التـــاج

البريطاني او انه تجمع مثالي نموذجي . انه بصورة خاصة سوق مشتركة او جمعية للتجار . فالسيد نهرو لا يرى في الملكة اليزابت الثانية ملكة عليه ولكن بريطانيا مدينة لبلاده . اما التجارة فقد بقيت بين ايدي الشركات البريطانية . فاغلاق القناة في وجه بريطانيا قطع لعلاقتها الحيوية مع امبراطوريتها القديمة في الهند وسلسلة مخازنها التي انشأتها هناك وحرمان لها من مطاط ماليزيا وابعاد لها عن اوستراليا وهونغ كونغ .

ان خمسة عشر من يوماً الملاحة تضاف الى الزمن الذي تستغرقه الرحلة الى بريطانيا بعد ان تضطر السفن الى الدوران حول رأس الرجاء الصالح هو في لغة المال زيادة شديدة في تعرفات التصدير ، وقضاء على التوازن التجاري الدقيق ، وابعاد مفاجىء للاسواق البعيدة بما لا يقل عن ٧٠٠٠ كيلو متر بحيث تصبح هذه الاسواق بعيدة عن التناول .

ومع ذلك فان ضرورة الاحتفاظ بحرية الملاحة في القناة لا تستطيع ان تدفع ببريطانيا الى قطع علاقاتها الودية بالدول العربية . وانها تحتفظ في العراق بنبعها البترولي الرئيسي . اما الاردن فقد كانت الى قبيل اخراج غلوب باشا في شباط ١٩٥٦ بلداً تدور في فلكها . ومواقع البريطانيين في الشرق الاوسط كله كثيرة جداً . فلندن بالنسبة الى هذه المنطقة من العالم هي الخزانة المركزية ، ومدينة المصارف وقاعدة شركات التأمين والعاصمة التي يأتيها ابناء الاقطاعيين من اصحاب العمائم يدرسون فيها ويلبسون .

وهناك محالفات بين بريطانيا والعراق والاردن حتى ومصر نفسها. فاذا انفجرت حرب ضد هذه البلدان - باستثناء اسرائيل - فان لجيوش بريطانيا الحق في الرجوع الى اراضي هذه البلدان الثلاثة للدفاع عنها. فاذا أصبحت حليفة لاسرائيل فقد فقدت حقها في هذه المحالفات واستغنت عن هذا الجهاز المزيل، الذي يصلح للاستعمال في الوقت نفسه، وعن النفوذ الذي تحتفظ به في الشرق الاوسط كله. ولهذا كانت محطة الشرق الادنى في قبرس حتى ليلة الانذار تهاجم اسرائيل بعنف وتقف منها موقف الخصومة الشديدة.

ولكن الاحداث لم تلبث أن وضعت بريطانيا في مأزق حرج للغاية.

لقد اخفت باريس علاقاتها الحقيقية مع الدولة اليهودية خلال أشهر طويلة بسبب تعاونها مع بريطانيا. وها هو ناطق اسرائيلي يعرض الحوادث من خلال وجهة النظر الاسرائيلية.

قلنا له: مهما يكن الامر فان محادثات بين باريس وتل ابيب قد بدأت منذ ٢٦ تموز.

فاجاب: ومن أين تريد ان نشتري الاسلحة؟ هل نجدها في دكان البقالة؟ لقد طلبنا من فرنسا وكندا منذ سنتين او ثلاث سنوات طائرات نافورية ولكن باريس واوتاوا لم توافقا على تسليمنا هذه الطائرات.

لقد كانت فرنسا مرتبطة بالتصريح الثلاثي الصادر في ١٩٥٠ والذي يفرض على كل من اميركا وبريطانيا وفرنسا

التشاور المشترك في حالة وجود نزاع في الشرق الاوسط وتحقيق التوازن في التسليح بين اسرائيل والعرب .

وقد تألفت لهذه الغاية هيئة دولية تشرف على ارسال الاسلحة الى الفريقين . وبقي هذا التوازن قائماً حتى تدفقت الاسلحة السوفياتية في الربيع السابق على مصر . فتسلم عبد الناصر ١١٠ طائرات ميغ — ١٥ — مطاردة من طائرات الحرب الكورية ، وعدداً من طائرات ميغ — ١٧ — المزودة باجهزة اليكترونية وبقوة ضرب فائقة . و ٤٠ قاذفة للقنابل من طراز ايليوشن — ٢٨ — اي اكثر من ١٥٠ طائرة حديثة بالاضافة الى الطائرات النفاثة القديمة التي كانت تملكها مصر .

أما نحن الاسرائيليين فقد شعرنا بالضياع . لقد كنا نملك طائرات « أوراغان » قديمة . وتنقصنا الطائرات الحديثة التي تستطيع مقابلة طائرات الميغ وايليوشن . »

وبعد أن قمنا بمحاولات جديدة وافقت فرنسا على تزويدنا بالاسلحة الحديثة لا سيما وأنه لم يكن من مصلحتها الدفاع عن عبد الناصر أو تسهيل انتصاره على اسرائيل .

ولم تكتف فرنسا بتزويدنا بطائرات المطاردة بل زودتنا أيضـاً بسيارات مدرعة سريعة « ا — م — اكس » ومدافع مضادة للدبابات ومدافـع أخرى قياس — ٧٥ — وبطاريات مقاومة للطائرات ، وأجهزة لاسلكية الخ ..

وتابع الناطق الاسرائيلي قائلاً : وفي أيلول من السنة نفسها ، نام مشروع التدخل الفرنسي . ولكن الاحداث تتابعت عنيفة

بالنسبة الى اسرائيل . فقد توجهت سوريا الى روسيا لتتسلم منها أسلحة كتلك التي تلقتها مصر . وفي الخامس من أيلول عقد مؤتمر عسكري في الرياض بين مصر ولبنان والعربية السعودية والاردن ففشل . ولكن الحلف الثلاثي المصري السوري الاردني لم يلبث بعد أسابيع قليلة حتى أصبح حقيقة واقعة . وقد كان من المنتظر ان توقع وثائقه في ٢٨ تشرين الأول .

« وهنا كانت نهاية آمالنا في تحقيق تفاهم مع مصر التي كنا نعارض حلف بغداد في سبيل إرضائها (كذا) ثم اعترفنا بتأميم القناة . وعندما شعرنا بقرب انهيار مقاومتنا المالية والعسكرية وعجزنا عن متابعة تحمل الخوف الراعب الذي يغزونا من كل ناحية صممنا على الحرب .

« العالم كله يتحدث عن اسرائيل . ولكن هذا العالم لا يعرف أننا دولة ميكروسكوبية هزيلة . وأن عدد سكان دولتنا لا يزيد عن عدد سكان ستة أحياء من أحياء باريس العشرين . وأن جيشنا هو أقل عدة وعدداً من شرطة نيويورك . وأن حقولنا هي من الضيق بحيث اضطررنا الى زرع قمحنا في بورما ، حيث جففنا مستنقعات كثيرة لتحقيق هذه الغاية .

« إن أمن اسرائيل وهمٌ مجنون . ولكن حكومتنا لا تستطيع أن تسمح للشعب بادراك هذه الحقيقة . فالجميع عند ذلك يصابون بالجنون . إنه لا يوجد بيت اسرائيلي ليس في متناول قذائف مدفع من المدافع العربية . فنحن في حالة حرب دائمة . نحرث ونعمل ونبني والسلاح معلق في اكتافنا .

« وهناك عامل آخر يجهله الاجنبي . فنحن نفقد الاحتياطي البشري اللازم . لأن الهجرة اليهودية في حاجة الى مجهودات طويلة لدمج المهاجرين بالمجتمع الاسرائيلي . والرقيب عندنا في الجيش ثروة ، أما الزعيم فهو كنز نادر .

« لقد كلفتنا معركة ١٩٤٨ خسارة كبيرة . وفي رأيي أننا سنزول حين نخوض معركة جديدة .

« لذلك ، رأت حكومتنا ان قيامنا بهجوم على مصر قد يكلفنا بعضاً من الخسائر ولكنه يبعدنا عن ساعة الاحتضار بضع سنوات نستمتع فيها بسلم وقتي .

« وبفضل فرنسا تسلمنا اسلحة كثيرة . فلا معنى للتردد .

« في هذا اليوم أعلن بن غوريون في خطاب له :

— وأخيراً لقد كسبنا حليفاً حقيقياً .

فسأل السفير الاميركي : ومن هو هذا الحليف ؟

فبقي سؤاله دون جواب .

وتابع الناطق الاسرائيلي قائلاً :

« أما السيد ايدن الذي كان يفكر طويلاً في الثأر من عبدالناصر فقد قرر ان يحول دون وصول عبد الناصر الى مركز القيادة للدول العربية . فاصطدم به في الاردن .

« كانت الانتخابات النيابية قريبة على الابواب في بلد فقير كان قد أنشأه الملك عبد الله الذي اغتيل في مدينة القدس . وقد تمت رغبته بمساعدة الفرقة العربية التي كان يقودها غلوب باشا . وكان صديقاً حقيقياً للبريطانيين .

وعلى كل فان الاردن مدين بوجوده للبريطانيين أنفسهم . لان ميزانية الدولة الاساسية كانت تدفع من خزينة بريطانيا . ثم اكتسح ٤٠٠،٠٠٠ من اللاجئين الفلسطينيين حدود هذه الدولة. واقتنع ضباط الفرقة العربية بخطة عبد الناصر فبدأوا باخراج غلوب باشا . واظهروا استعدادهم لاخراج الملك حسين الذي كان يعتبر في نظرهم صديقاً للبريطانيين .

« ثم انتقل عبد الناصر الى مرحلة جديدة تقدم فيها باقتراح لتحقيق حلف عسكري بينه وبين سوريا والاردن . فبدأت من ثم مباراة في تزويد الاردن بالمساعدات بين مصر والعراق . ودخلت فرقة عسكرية عراقية ، غايتها الدفاع عن عرش الحسين ضد خصومه من بعض ضباط الجيش الاردني. لكن موقف هذه الفرقة العراقية من اسرائيل كان أشد عداوة من موقف مصر واعود عليها بالضرر الفادح . »

وفي الوقت نفسه اعلن ايدن عن مشروع لعقد صلح نهائي بين اسرائيل والعرب بعد الرجوع الى قرار التقسيم الذي أصدرته هيئة الامم المتحدة سنة ١٩٤٧ . وألمح الى امكانية استعمال القوة ضد اسرائيل .

فثارت ثائرة اسرائيل .

ورأت ان دخول الفرقة العراقية الى الاردن ايذان بحرب ضدها .

ولكن الحوادث لم تلبث أن اسفرت عن انتصار عبد الناصر في الاستفتاء الشعبي في المملكة الاردنية .

وهنا اتخذت تل ابيب قرارها . فصممت نهائياً على القيام بغزو تطهيري في سيناء .

في هذه الاثناء كانت العلاقات الودية تزداد توثقاً بين باريس وتل ابيب . فانتقلت افواج الضباط والاختصاصيين الاسرائيليين الى فرنسا تفاوض في شراء الاسلحة وتجد في كل مكان استقبالا حاراً مخلصاً ولا سيما في شارع القديس دومينيك في ابنية وزارة الدفاع الفرنسية .

يضاف الى هذا كله ان مناحيم بيغن احد زعماء المعارضة في اسرائيل قد استقبل استقبالاً حافلاً في باريس وخطب امـــام اعضـاء المجلس الوطني . اما حكومة بن غوريون فقد وجهت دعوات كثيرة الى برلمانيين فرنسيين ليكونوا ضيوفاً عليها في تل ابيب .

اما اول من حملت اسرائيل رغبتها اليه في التسلح و كشفت له نياتها المخبأة فهما وزير الدفاع الفرنسي بورجيس مونوري ومدير غرفة السيد أبَل توماس . اما وزير الدفاع فهو شاب في الثانية والاربعين من عمره واحد خريجي مدرسة البولتكنيك النابهين . و كذلك مديرَ غرفته السيد أبَل توماس .

وفي اواسط تشرين الاول كانت افواج من الاختصاصيين الاسرائيليين قد وصلت الى شارع القديس دومينيك في وزارة الدفاع الفرنسية للتزود بآخر التجهيزات التي تحتاج اليها اسرائيل في هجومها المرتقب الذي تعده ضد مصر .

ولم يكد بورجيس مونوري يعرف بالخبر حتى استقل سيارته

قاصداً قصر ماتينيون حيث يقيم رئيس مجلس الوزراء . فقدم اليه على صينية من فضة هذه الفرصة الذهبية التي طالما انتظرها الفرنسيون لتبرير تدخلهم في مصر .

ان الهجوم الاسرائيلي في نظرهم سيبرر تدخلا فرنسياً بريطانياً . ولان مثل هذا الهجوم سيجعل الملاحة في القناة في خطر داهم . لا سيما وان عبد الناصر قد هدد بتخريب القناة والقاء قطع ضخمة من الاسمنت في مياهها فيما اذا تعرضت بلاده لخطر غزو منتظر .

وهكذا ازال عبد الناصر بتصريحه كل تردد اظهره ايدن ووزير خارجيته سلوين لويد فوضعا قرارهما النهائي .

لقد كان قرار اسرائيل في وقت رأى فيه الرأي العام في باريس ولندن مثل هذا القرار فرصة فريدة ممتازة .

اما في بريطانيا فقد انهارت الامال في تحقيق انتصار ثأري على عبد الناصر بعد الانتخابات الاردنية التي فاز فيها انصار مصر فوزاً ساحقاً . لا سيما وان المفاوضات التي كانت تدور في عمان بين المصريين والسوريين والاردنيين قد جعلت من عبد الناصر سيداً غير مدافع وقائداً للاتحاد العربي .

وقررت الحكومتان الغربيتان اخيراً ان تحولا ملف قناة السويس الى مجلس الامن بعد ان ترددتا طويلا في اللجوء الى هذه الوسيلة العقيمة . ولكن الروس قد اعترضوا هذه المحاولة بحقهم في النقض (الفيتو) ولم تقدم الولايات المتحدة على انجاد حليفتيها . فظهرت نيات السيد فوستر داليس في اخراج البريطانيين

والفرنسيين من الشرق الاوسط واضحة جلية .

وعبثاً حاول السيد ايدن قبل ذلك بستة اشهر ان يقنع ايزنهاور بالتدخل ضد النفوذ الروسي في الشرق الاوسط وفي مصر بصورة خاصة ، وان ينتزع منه تصريحاً يفهم به روسيا ومصر وزعماء العرب بان الولايات المتحدة عازمة على استعمال القوة المسلحة للدفاع عن مواقع الغرب ، تماماً ، كما فعل بالنسبة الى جزيرة فورموزا في حالة تعرضها للعدوان .

ورفض الرئيس ايزنهاور قائلا :

– انني لن اقوم بعمل قد تفسر نتائجه على انها عمل حربي حتى يقرر الكونغرس الاميركي هذا الامر . وهو وحده الذي يملك مثل هذه السلطة .

ولكن ايزنهاور لم يلبث بعد تجديد رئاسته سنة ١٩٥٧ أن طلب من الكونجرس ان يأذن له باستعمال هذه القوة المسلحة في الشرق الاوسط . فعل هذا بعد انهيار النفوذ البريطاني الفرنسي الذي تلقى الصدمة المخيفة ففرض عليه امر وقف اطلاق النار من قبل هيئة الامم المتحدة والروس والاميركيين مجتمعين .

كان السيد داليس يضغط على الفرنسيين والبريطانيين للامتناع عن اللجوء الى القوة المسلحة بعد تأميم القناة ، بينما كان هذان البلدان مهددين من قبل عبد الناصر ومن قبل موسكو وراءه بالاختناق الاقتصادي . وكانت السفن الاميركية تدفع رسوم اجتياز القناة كاملة الى الجانب المصري . كما نسف السيد داليس جمعية الدول المنتفعة من القنـــاة ، واتاح لعبد الناصر فرصة

الانتصار في معركة التأميم .

لقد سئل السيد غي موليه بحرارة من قبل مجلس وزرائه عما انتهت اليه الحملة ضد مصر .

فاجاب موليه :« ان لدي وعداً قاطعاً من السيد ايدن بان الحملة ستتحقق قبل عيد الميلاد » .

وفي الثالث عشر من تشرين الاول وضعت المعارضة الروسية واليوغوسلافية نهاية للمناقشات في هيئة الامم المتحدة ، ولآمال الفرنسيين والبريطانيين في تحقيق تسوية دولية لقضية القناة . وفي الرابع عشر من الشهر نفسه عرف الفرنسيون بالحملة الاسرائيلية التي تهيأ ضد مصر . وفي الخامس عشر منه توجه الجنرال شال الى لندن ليحيط السيد ايدن علماً بالموضوع .

ثم اشار الى المنطقة التي يجب ان يحدث فيها التدخل البريطاني الفرنسي بعد ان وضع يده اليسرى على سيناء وقال هنا الاسرائيليون . ويده اليمنى على الدلتا وقال : هنا المصريون . ثم اشار الى القناة وقال : هنا يجب ان تحدث عمليات التدخل .

فاجاب ايدن : « هذه فكرة حسنة » . ولكن رجل الدولة البريطاني قد نظر الى المنطقة التي حددها الاقتراح العسكري نظرة سياسية بحتة .

وفي السادس عشر من الشهر نفسه احتجز السيد ايدن نفسه ووزيره السيد لويد في غرفة من قصر ماتينيون في باريس مع موليه وبينو . وبقي معاونوهم خارج الغرفة خلال خمس ساعات متوالية .

« وفجأة وضع ايدن خطته . انه لم يكن يريد هجومـاً كما يكون الذيل بين الفرقاء. ولا كحليف لاسرائيل. فان معاهدات التحالف التي تربطه بالعرب والمواقع التي يريد الاحتفاظ بها او تجديد السيطرة عليها لا تسمح له بعقد اي حلف مع اسرائيل التي اقترح منذ قليل تعديل ارضها لمصلحة العرب .

فالمح المسؤولون الفرنسيون له ان رغبته في الاحتفاظ بصداقة العرب ستكون لها نتائجها السيئة في هذه الحملة ، وعقبوا قائلين : لقد كانت فرنسا قوة اسلامية كبيرة ، وصديقة كبيرة للعرب عندما غزت الجزائر وتونس ومراكش وسوريا ، ويكفي ان نعاود السيطرة على القاهرة لنصبح اصدقاء لمصر (كذا) » .

اما الرئيس البريطاني فقد "قد" من صخر .

كان يريد الاستفادة من المعركة الاسرائيلية وان يطأ ارض القناة ويحمي فيها حرية الملاحة مع الافرنسيين، شرط الاحتفاظ بموقف الموفق المحايد والمتدخل لابعاد المتقاتلين عن القناة .

واكد السيد ايدن ثقته التامة في ان الولايات المتحدة ستتساهل مع حليفتيهـــا حين تتدخلان كحارسي سلام لفصل اسرائيل عن مصر وتأمين الحماية للقناة .

ولكن بينو لم يكن يشاركه في هذه الثقة ، مؤكداً ان ايزنهاور وداليس لن يترددا في شجب هذا التدخل العسكري واعتبـــار الفرنسيين والبريطانيين معتدين في كل وقت قبل انتخابات الرئاسة او خلالها او بعدها .

اما فيما يتعلق بالروس فقد كان وزير الخارجية الفرنسية اكثر

وثوقـــاً ، قائلا : « انهم سيصرخون ، ويهددون ، ويجلجلون . ولكنهم لن يفعلوا شيئاً » .

وقد حدث مـــا تنبأ به السيد بينو الفرنسي ، فقد ضج السوفيات وارسلوا التهديدات المخيفة ولكنهم احتفظوا بتعقلهم وحذرهم .

وقال موليه : « ان علينا ان نتخذ قراراً اليوم ، او نقلع عنه ابداً . لان الراصدين الجويين يتنبأون بصفاء الجو في نهاية تشرين الاول واوائل تشرين الثاني في منطقة البحر المتوسط . اما فيما يلي من الاسابيع فالظروف الجوية قد لا تسمح بتحقيق عمليـــات انزال سليمة ، وحاجتنا ماسة الى ليالٍ مضيئة صافية لتجميد المطارات والطائرات المصرية والى بحر هادىء لاستعمال قوارب الانزال » .

واشار الفرنسيون بعد ذلك الى ضرورة الاستعجال في تهيئة هذه الحملة ، لكي لا تتاح لهيئة الامم المتحدة فرصة التدخل ، وان على المتدخلين ان يحققوا اهدافهم باسرع ما يمكن من الوقت ، وان مباراة في السرعة ستنفجر بعد ابتداء الحملة بين البريطانيين والفرنسيين من جانب وهيئـــة الامم المتحدة التي سيحركها الاميركيون والروس من جانب آخر .

فقال ايدن : « ان الاميركيين سيظهرون استياءهم ما في ذلك ريب ولكنهم لن يعملوا عـــلى شل عملياتنـــا في كل حال » .

وهيئة الامم المتحدة ، في حالة وقوف اميركا موقف حياد

نسي، لن تسرع في اتخاذ القرارات الخطيرة قبل مرور اسبوعين يكون خلالهما البريطانيون والفرنسيون قد اصبحوا اسياد بور سعيد والسويس . وهنا يدرك السيدان ايزنهاور ودالس قيمة الشرق الاوسط الخطيرة بالنسبة الى السلم العالمي والى الغرب بصورة خاصة بحيث تنضم قوات اميركا وهيئة الامم المتحدة الى قوات المحتلين الحلفاء .

وعقب لويد قائلاً ، بحماسة ضئيلة لفكرة التدخل : « ان الخطر الكبير هو في امكانية تخريب عبد الناصر للقناة بحيث نجد انفسنا محرومين من الوقود ونكون كمن يضرب الحصار على نفسه » .

فاجاب موليه : « ان الهجوم الاسرائيلي كاف لدفع عبد الناصر الى تنفيذ تهديداته . ونحن لا نستطيع ان نمنع الاسرائيليين المهددين بالفناء من العمل على تخريب الجهاز الذي يبنى لغرض ازالتهم . والعكس هو الصحيح . فان تدخلاً غربياً ساحقاً قد يقلل من امكانية التخريب الذي سيصيب القناة خلال هذه المعركة » .

وعقب ايدن قائلاً : « اننا من ناحية اخرى نستطيع الاعتماد على استعداد الولايات المتحدة بتزويدنا بالوقود الذي قد نحتاج اليه . »

فاجاب موليه : « ان المعضلة الكبرى في هذا الموضوع هي ان الغرب قد أصبح مهدداً من قبل الاتحاد السوفياتي الذي وضع

قدمه في الشرق الاوسط وحول مصر الى معسكر كبير . وهي من الضخامة بحيث تبرر لنا مقابلة الاخطار التي قد تعترضنا » .

وتقررت الحملة . وقبل الفرنسيون ، بعد عجزهم عن تغيير موقف ايدن ، استعمال التبرير القانوني المصطنع لعملية التدخل التي تستهدف ابعاد المتقاتلين عن القناة .

وهكذا بقي عليهم تحقيق التناسق بين الهجوم الاسرائيلي وعمليات التدخل .

قال ايدن : « انني لا اريد ان اعرف شيئاً عن اسرائيل . وسأعمل عند بداية المعركة . فارسل الأنذار واوجه قوافلي بعد ذلك » .

والح الفرنسيون على ضرورة جمع القوات البريطانية في كل من مالطه وقبرص . فتم الاتفاق على ذلك . ورجع ايدن ليبلغ هيئة اركان حربه بنتائج محادثاته وتعلياته .

أما الاسرائيليون فانهم رغم رغبتهم الشديدة في التخلص من الخوف الراعب الذي يخيم فوق بلادهم ، فان فريقاً كبيراً من دبلوماسييهم كان ضد فكرة التدخل الفرنسي البريطاني لسببين رئيسيين :

اولاً : ان اسرائيل كانت تطالب دول مؤتمر باندونـــغ باشراكها في اعمال هذا المؤتمر .

ثانياً : ان اشتراك بريطانيا معها في هذه المعركة يسيء اليها اساءته الى بريطانيا بالذات .

يضاف اليهما ان اسرائيل كانت تحلم بالفوزبا كاليل الغار وحيدة دون شريك .

كان هذا هو رأي السياسيين على الاقل . اما العسكريون فهم اكثر ادراكاً للحقائق .

لقد أعلن ناطق اسرائيلي : ان اشتراك بريطانيا وفرنسا جدير بالقضاء على الطيران المصري، بحيث تستنقذ حيفا وتل ابيب والقدس من قنابل طائرات الميغ وايليوشن. كما تتحرر القوات الاسرائيلية في سيناء من صواريخ المصريين ورشاشاتهم .

ومع هذا كله فان الاسرائيليين لم يكادوا يقتربون من يوم المعركة حتى اجتاحهم قلق شديد حين فكروا بالغارات الجوية وتخيلوا تساقط القنابل عليهم بعد اجتيازهم للحدود المصرية . فطلبوا الى فرنسا ان تزودهم بمزيد من قوات التدخل الجوي .

وبما ان وضع البريطانيين قد برز بالتعقيد المشار اليه انفاً، فقد وجد الافرنسيون حرجاً في ارسال قوات كبيرة الى اسرائيل في غفلة عن البريطانيين . ولكن خوفهم من تغلب عبد الناصر على الدولة اليهودية أو من تراجع اسرائيل في الدقيقة الاخيرة بحيث تضيع اغراض فرنسا من الحملة المنتظرة، قد دفعا بهم الى التصميم على ارسال هذه القوات .

وكان الاتصال التلفوني بين اسرائيل وفرنسا يحدث في كل يوم . واخيراً اتفق بن غوريون ومولية تلفونياً على ان يتوجه الاول الى فرنسا لوضع حد نهائي لهذا الموضوع .

فاتخذت الاحتياطات الاستثنائية لاستقبال رئيس وزراء اسرائيل في مطار « فيلا كوبلا » واخلي المدرج الرئيسي حتى من العسكريين انفسهم . ووصلت حول التاسعة صباحاً الى المطار سيارة خالية من شاراتها الرسمية تقل السيد موليه . وانتظرت قليلاً حتى حطت طائرة آتية من تل ابيب تحمل بن غوريون الذي غطى رأسه بقبعة كبيرة تخفي جانحي شعره الابيض . وانطلق رجلا الدولتين الى بناء عسكري مجاور أخلي من سكانه .

اما ما قيل في هذا الاجتماع فقد بقي سراً حتى اليوم . والذين شعروا بمجيء مندوب اسرائيلي كبير في فرنسا قليلون جداً ، مع العلم ان هؤلاء القليلين كانوا يظنون انه موسى شاريت .

وامتدت المفاوضات حتى الظهر . ومن الممكن ان نستخلص ما جرى فيها من خلال الحوادث التي تعاقبت بعد ذلك .

لقد حصل بن غوريون نهائياً على المساعدة الجوية الكبيرة التي كان يطالب بها ، وعلى مساعدة بحرية مثلها أيضاً . هذا من جانب . اما من جانب اخر فقد اصبحت اسرائيل وفرنسا حليفتين حقيقيتين ، لا في الميدان العسكري فقط . بل في الميدان الدولي أيضاً .

لقد جرت عملية التجنيد منذ اواسط تشرين الاول وتتابعت في سرية تامة . وفي الخامس والعشرين من هذا الشهر اعلن عنها بسرية تامة أيضاً بحيث ان العالم لم يطلع عليها الا في الثامن والعشرين وقد ظن العالم كله ان الهجوم سيكون في اتجاه

الاردن الذي كان الفـــدائيون فيه قـــد بدأوا نشاطهم منذ اسابيـع خلت .

ولكن اليوم التالي لم يلبث ان كشف عن نيـــات الاسرائيليين . ووضع العالم امام أزمة جديدة . وبدأ الزحف الاسرائيلي على سيناء .

خمسون يوماً من الاستعداد

أرسل الانذار البريطاني الفرنسي في تمام الساعة السادسة من مساء الثلاثين من تشرين الاول ، وبدأت عمليات الآلة الحربية على ابواب القاهرة في تمام الساعة السادسة والنصف من مساء الواحد والثلاثين من تشرين الاول . ان هذه الآلة الحربية ؛ جهزت واعيد النظر في تجهيزهـــا مرات متعددة قبل ذلك بخمسين يوماً ، وقد كانت على اتم الاستعداد منذ العشرين من ايلول .

ومن متناقضات هذا العصر الذري ان الحملات العسكرية فيه تتطلب من الزمن لتحقيق تجهيزاتها المختلفة اكثر مما كانت تتطلبه في زمن البحرية الشراعية .

لقد اعلنت الحكومتان الغربيتان عن عزمهما على استعمال القوة واللجوء اليهـــا اذا تعذر عليهما ان تجدا حلولا سلمية لقضية القناة .

وكان اول مـا خطر للسيد موليه ، بعد القهقهة العالية التي انفجرت في الاسكندرية ، هو تحقيق تدخل ثلاثي : اميركي بريطاني فرنسي . لقد كان الرئيس عبد الناصر يستهدف الولايات المتحدة بعد ان امتنعت عن تزويده بالمساعدة المالية لبناء السد العالي ، حين امم القناة فامسك بخناق حليفتيهـا ووضع قبضته فوق الشريان الحيوي لنشاطها اليومي .

وقد اتصل السيد موليه بالسيد ايدن بعد اذاعة الخطـــاب المصري بساعات قليلة وحصل على موافقته . ثم توجه في الوقت نفسه الى واشنطن ، فاعلن السيد داليس انتقاله الى لندن . وفي التاسع والعشرين من تموز استقل الاميرال نومي ، رئيس اركان البحرية ، طائرة خاصة الى لندن . فقـــد ارسله السيدان موليه وبورجيس مونوري وزير الدفاع الوطني ليكون الى جانب السيد ايدن والقيادة البريطانية العليا . وذلك لتنظيم حملة مشتركة على مصر .

ووصل السيد داليس الى لندن، وبدلاً من ان يشجع حليفتيه عـــلى استعمال العنف فقد اوصى بالتعقل والرصانة في الشرق الاوسط . كانت الولايات المتحدة تتخذ لنفسها سياسة مستقلة عن حليفتيها الاوروبيتين ، اللتين كانتا تسيطران على الشرق ، فقد رأت الولايات المتحدة ان مصالحها البترولية التي كانت تربطهـا بالدول العربية وتضعها في موضع المنافس للبريطانيين ، وان سياسة التقرب الجديدة التي وضعتها لنفسها مع انصار الحيـاد ، والخوف من ان تنفضح في تأييدها للقوى الاستعمارية ، وممثليها

الدبلوماسيين الذين يلبس بعضهم لباس لورنس، هذه كلها جعلتها تعتقد ان التدخل السوفياتي هو اقل خطراً عليها من مساندة التدخل الاستعماري الذي تنوي حليفتاها القيام به .

حاول السيدان بينو وايدن فتح عيني السيد داليس ، فالقناة بالنسبة لهاتين الدولتين شريان الحياة . وترك الروس وراء عبد الناصر يشرفون على القناة ، يغلقونها متى يشاؤون ويفتحونها متى يشاؤون هو بمثابة تعيين وزير سوفياتي للتموين . واذا اصرت الولايات المتحدة على عدم استعمال القوة فان عليها على الاقل ان تفسح الطريق حرة لحليفتيها الغربيتين .

فاجاب داليس : كل شيء يمكن ان يسوى بطريق سلمية ؛ وحادث مصدق مثل بارز على ذلك .

وكان دفاع داليس سيء الاختيار ، فان مصدق لم ينهزم بثورة انتهازية الا بعد ان تنازل البريطانيون عن قسم كبير من بترول الايرانيين .

وهم لا يستهدفون مثل هذا الحل .

وهكذا هدد البريطانيون والفرنسيون بالقضاء على حلف الاطلنطي في حالة اصرار اميركا على اعتراضها في سياستها الخاصة .

فقال داليس : علينا قبل كل شيء ان ننقذ حلف الاطلنطي، ولنلجأ اولاً الى الاساليب الدبلوماسية .

واخيراً تم الاتفاق على عقد مؤتمر من الدول ذات العلاقة الخاصة بالقناة ، على ان تلجأ بريطانيا وفرنسا الى استعمال القوة

اذا فشلت المفاوضات السلمية .

اما المظلة الذرية الاميركية ضد اي عدوان سوفياتي فبقيت مضمونة لكل من لندن وباريس .

وآمن السيد ايدن ان في هذا الاتفاق ما يسمح له بالاعتقاد بان الولايات المتحدة ستفسح الطريق حرة امام حليفتيها .

وفي الاسابيع التالية ، رجع داليس الى معارضته المكشوفة لاية محاولة عسكرية فرنسية بريطانية في الشرق الاوسط .

ثم انفجر في مناسبة لاحقة، وامام اعضاء هيئة الامم المتحدة عندما شعر بعجزه عن فرض رأيه في العمل بطريقته الخاصة .

وقد اثبت مؤتمر المنتفعين من القناة لكل من البريطانيين والفرنسيين عجزه عن استعمال الوسائل التي تتيح له ارسال حملة الى الاسكندرية ، ومع ان البريطانيين والفرنسيين كانوا غير راغبين في المفاوضة فان عجزهم العسكري قد ارغمهم عـــلى الدخول فيها .

وتساءل الاميرال نومي وشركاؤه من البريطانيين يومئذ عما اذا كانوا في حاجة الى مثل هذا التريث لو كانوا في خدمة الملكة فكتوريا ونابليون الثالث ، او كانوا يجدون انفسهم في مثل هذا الحرج العظيم . فقاعدة قبرص الجوية لا تبعد اكثر من ٤٠٠ كيلو متر من الشواطىء المصرية ، وقاذفات القنــابل الذرية « كانبيرا » تستطيع الوصول الى الاسكندرية خلال ثلاثين دقيقة والى القاهرة خلال اربعين .

فالقاء القنابل من قاعدة قبرص اسهل من الاتصال بها عن

طريق الهاتف ، بحيث يزول عبد النـــاصر ومليون آخر من المصريين خلال ساعة واحدة من الزمن . ان قبرص قاعدة جوية ذرية مزودة بقنابل - أ - التي يملك منها البريطانيون عدداً غير قليل .

ثم لم يلبث هؤلاء ان ادركوا انهم لم يعودوا يعيشون في عهد حروب القرم ، وان الرئيس عبد الناصر قادر على ذبح الفرنسيين في كل يوم عن طريق الجزائر ، كما ان التقاليد الدولية لا تسمح بمثل هذه المظاهرات الزجرية الانتقامية .

وهنا برزت فكرة جديدة ، فقالوا : الا يمكننا ان نرسل عدداً كبيراً من الطائرات التي تحمل ما يساوي ستة كتائب من الجنود فينزل أفرادها فوق الاسماعيلية عاصمة المجرى المائي ؟ فصرخت هيئة الاركان محتجة بان جنود المظلات لا يمكن ان يتركوا في الميدان وحدهم اكثر من ١٢ ساعة .

إن طيراناً قوياً كطيران مصر مؤلفاً من اربعمئة طائرة نصفها حديث ، وان جيشاً مدرعاً مؤلفاً من أربعمئة دبابة ثقيلة كافيان لسحق ٦٠٠٠ من المظليين في فترة وجيزة جداً .

ثم قال رجال العمليات الاستراتيجية : ان علينا تجميد الطيران المصري ، القوة الرئيسية الكبرى في الشرق الاوسط والمؤلفة من طائرات نفاثة سريعة ، وان علينا إعداد المظليين وتجهيزهم تجهيزاً كاملاً لكي تنزلهم فوق الاراضي المصرية .

هذا كله يقتضي استعدادات خطيرة مهمة ، بالاضافة الى ضرورة انجاد المظليين بقوى مساعدة والحاقهم بالسيارات المدرعة .

اما نقل هذه السيارات فهو في حاجة الى اسطول كبير . ولكي يضعها الاسطول فوق اليابسة فاننـــا يجب ان نستعد لعملية انزال واسعة .

ويضاف الى هـــذا كله ايضاً وضع خطة شاملة . والخطة الشاملة في حاجة الى هيئة اركان حربية . وبعد مداولات امتدت ساعات كثيرة قرر العسكريون ما يلي :

١) يجب ان تكون العمليـة العسكرية رباعية الجوانب ، فهي جوية اولاً لتنظيف الجو من الطائرات المصرية النفاثة التي زود بها المصريون من قبل الاتحاد السوفياتي ، والتي تحول دون اقتراب جنود الحملة من الارض المصرية . وهي ثانياً حملة مظليين ثم حملة برية لاستثمار نجاح المظليين . واخيراً حملة بحرية بصورة الزامية لحمـــل القوات المغيرة وتقديم النجدة على عتبة مرفأ الانزال .

٢) لا تملك فرنسا وبريطانيا اية قوة صالحة للتدخل،أي قوة مغاوير لها طيرانها واسطولها ومراكبها البرمائية وسياراتها المدرعة ومدفعيتها بحيث تكون مستعدة للطوارىء في كل وقت وفي كل مناسبة ، ففرنسا التي كانت وما تزال منذ سنة ١٩٣٩ في حالة حرب دائمة لم يكن لها من الوقت والوسائل ما يسمح لها ببنـاء هذا السلاح الغالي الثمن بحيث تكون مزودة بالاسلحة الحديثة عنـد كل طارىء ، وبريطانيا ليست خيراً منها . امـا جهاز جيوش الحلف الاطلسي فلا يصلح ابداً من الناحية المبدئية لاستعمال قوات منه بصورة مستقلة فردية .

٣) ان تعبئة حملة عسكرية على مصر ، تتصرف بقاذفات ومطاردات ومختلف انواع الاسلحة والذخيرة الحديثة مع وحدات آلية متحركة واسطول حربي وعشرات من الناقلات واجهزة للانزال ومدفعية مناسبة ، وهيئة لاسلكية الخ. بحيث تكون كلها مستعدة للعمل ، في حاجة الى أسابيع ، وقد تحتاج الى أشهر ، بل الى شهر ونصف على الاقل .

لقد كان أحد القادة الاميركيين يقول لجماعة من الضباط الافرنسيين : ان المأساة بالنسبة اليكم ، ستكون في البطء البريطاني ، فالبريطانيون يطالبون لكل عمل يقومون به ، بوقت مضاعف عما يحتاج اليه في الحقيقة لتمام تنفيذه . ثم عقب قائلا :

« ولو استمعنا الى رأيهم لما حدثت عملية الانزال الكبرى في شواطىء النورماندي (اوفرلورد) سنة ١٩٤٤ ، بل تأخرت سنة كاملة على الاقل » .

٤) ان المهمة الاولى هي تكوين هيئة أركان عسكرية لم تكن موجودة بعد لتعذر الاستفادة من هيئة أركان جيش الاطلسي في هاتيك الظروف بحيث تكون هيئة سرية ، عاملة في صمت ، مستقلة استقلالاً مطلقاً .

وفي اليوم التالي لتوضيح هذه الملاحظات ، تم الاتفاق بين رئيسي الحكومتين على تعبئة القوة المطلوبة .

وقد أطلق على هذه العملية اسم سري هو اسم « ترابانت » لا يطلع على مغلفاته في بريطانيا غير الملكة ورئيس الوزراء .

ولا يعلم بمحتوياتها في فرنسا غير رئيس الجمهورية ورئيس مجلس الوزراء ثم وزير الدفاع الوطني ، بحيث تبقى خفية على من سواهم حتى على رؤساء هيئاتهم العسكرية الخصوصيين .

لم تطلع الحكومة الفرنسية على الخطة الموضوعة الا ليلة رجوع السيد موليه من لندن بعد توجيه الانذار الى طرفي النزاع في الشرق الاوسط . كما كان كل موظفي «الكي دورسيه» في جهل مطبق بما كان يدبر في الخفاء . أما السيد شوفل سفير فرنسا الى لندن ، فقد جهل كل شيء حتى التاسع والعشرين من تشرين الاول ، واخفى عنه وزيره هذه الخطط المرسومة حين اتى الى لندن لمفاوضة السيد ايدن ، كما اخفيت أسماء القادة الذين عينوا لقيادة الوحدات المطلوبة . وبقي ضباطهم في جهل تام باسباب الترتيبات التي طلب اليهم القيام بها .

وسلمت القيادة العليا الى البريطانيين ، لانهم كانوا أقرب الى الاميركيين وفي وضع قد يسمح لهم بالحصول على حياد الاميركيين . لقد كانت لهم قبرس كقاعدة للتدخل العسكري . وكانت لهم طائراتهم ذات المدى الطويل بينما كان الفرنسيون محرومين منها . وكانوا يملكون قواعد في مصر ويعرفون البلاد المغزوة معرفة تامة . كما يملكون في الوقت نفسه اكبر الاجهزة واقواها لتنظيف القناة : البحرية الملكية .

أما التقديرات الاجمالية للقوى الموضوعة لتحقيق هذه المحاولة فقد كان ثلاثة أخماسها من البريطانيين (٥٠،٠٠٠ رجل) وثلثاها من الفرنسيين (٣٠،٠٠٠ رجل) ثم تعادل الطرفان بعد الانذار

بسبب ما ألحقه الفرنسيون بقواتهم من نجدات جديدة .

واتفق الطرفان ، لتأمين نجاح عملية التدخل ، على دمج الجيشين ، فلا يكونا جيشين متحالفين بل جيشاً واحداً فقط تابعاً لقيادة بريطانية ، الحق بها قائد فرنسي هو بمثابة المساعد والنائب عند الضرورة العارضة ، تنتقل منهما الاوامر الى أميرال بريطاني يساعده اميرال فرنسي ، والى جنرال بريطاني يعاونه قائد فرنسي ، ثم الى مارشال جوي بريطاني يتبعه جنرال جو فرنسي أيضاً .

وقد ظن واضعو الخطة أن في مثل هذا التنظيم المتبع في جيش الاطلسي ما يحول دون بروز المساوىء المعروفة لكل ائتلاف بين جيشين ، من تنافس واختلاف وتصادم قد يحدث بين قادة من درجات متساوية .

والواقع ، ان هذه التجربة ، قد كادت تثبت فشل هذا الدمج ، الذي طالما رغبت فيه الجيوش الاوروبية المتحالفة ، وفتشت عنه .

لقد حمل توحيد القيادة شيئاً كثيراً من الجمود والثقل والبطء ، حتى كاد الفريقان يستغنيان عنه ، منذ ابتداء المعركة . فالبريطانيون لا يملكون النهج الذي يستعمله الفرنسيون ؛ والمراسلات المتبادلة بينهما قد اصطدمت بشيء كثير من التعقيد ؛ ولذلك فان الجيشين لم يكادا يضعان أقدامهما في أرض بور سعيد حتى استعادا استقلالهما .

ولئن لم يذهبا بعيداً في غارتهما بالسرعة المطلوبة ، فالسبب

راجع جزئياً الى عملية التوحيد هذه ، ولو استطاع الفرنسيون العمل وحدهم يسندهم البريطانيون، لسهل عليهم ان يكونوا فوق القناة كلها حتى السويس قبل توقف اطلاق النار بسبب استفادتهم المنتظرة من قرب الاسرائيليين منهم .

أما التجهيزات العسكرية الفرنسية والبريطانية فلم تكن ذات صفة مشتركة . حتى ان الحلفاء قد عجزوا عن الاتفاق على كل شيء ، على البندقية، والسيارات . فالمحركات مختلفة، ووقود الطائرات مختلف أيضاً . أما وقود الدبابات فلم يكن على درجة واحدة من طاقته التفجيرية في كل من الجيشين . كما ان الاختلاف في الزيوت والشحوم الميكانيكية ظاهر بين . ومستودعات الوقود لأحدهما لم تكن تصلح للآخر ، وكذلك السيارات المدرعة والمدافع ، فهي متباينة في حجومها ومقاييسها وقذائفها، والشأن نفسه في نوعية الطعام المقدم الى أفراد الجيشين: فالبريطانيون يشربون الشاي الذي يكاد يبعث على القيء عند الفرنسيين ، والفرنسيون يأكلون السردين المعلب الذي يبعث القرف في نفوس البريطانيين .

وفي الضرورة الملحة كانت هيئات الخدمات الطبية أقدر على الاندماج ، مع كل التعقيدات التي يسببها اختلاف اللغتين والتقاليد الطبية . وموازين الحرارة البريطانية لا تقرأ من قبل الفرنسيين ، كما أنها توضع في الفم .

أما فرق الاشارة والمراسلات فقد كانت متحاجزة متباعدة، فلكي تصل الاوامر الى اهدافها في وسط المعركة لكل من

المقاتلين المنتسبين الى جنسيتين مختلفتين يجب أن يتم التفاهم بين جنود الاشارة والارسال في الارض وبين الطيارين في الجو والمدفعية في المؤخرة والدبابات في المقدمة .

ولكن جنود الاشارة الفرنسيين يجهلون الانكليزية والعكس بالنسبة الى الجنود البريطانيين . وإعداد جنود يعرفون اللغتين أمر يحتاج الى أشهر طويلة من العمل المستمر ، بل الى سنوات لبعض منهم .

يضاف الى هذا كله ، ان الفرنسيين يملكون قوات مضرّاة متعودة على المراسلات السريعة ، ومهيأة لكل مفاجأة حربية . اما حلفاؤهم فلم يكن لهم غير أركان قاتلوا قبل ذلك باثنتي عشرة سنة .

واتفق الطرفان سريعاً على تسمية الحملة باسم «هملقار» ، وظهر ان الدمج بالنسبة الى هذا الاسم شيء مستحيل . فالبريطانيون يكتبون « هملقار » مبتدأ بحرف (H) رسموها على جدران دباباتهم الاولى المرسلة الى مالطة من ميناء ليفربول . اما الفرنسيون فيكتبونها دون (H) ولذلك رسموها على وحداتهم المدرعة بحرف (A) .

في الواحد والثلاثين من تموز استقل أحد ضباط هيئة الاركان ، الكولونيل « بربور » طائرة خاصة ، يتأبط حقيبة كتب عليها بالفرنسية : فرقة المظلات العاشرة التي كانت ستبلغ تجهيزاتها اربع فيالق ، والفرقة الميكانيكية السريعة السابعة .

قوتان من الدرجة الاولى .

– كونوا على استعداد خلال خمسة أيام ! هـذا هو الأمر الصادر إلى المظليين في افريقيا الشمالية بعد مفاجأة التأميم الذي قام به عبد الناصر .

لقد كان هذا الأمر بمثابة طلب المستحيل . فقد كان الجنود متفرقين على اختلافهم في مربعات متباعدة جداً فوق ارض واسعة الارجاء . وكان من الواجب تجميع الوحدات واخراج الطائرات ومعاودة تمرينات القفز في مجموعات مؤلفة كل منها من نصف فيلق ، وتجهيز السرايا بمدافع مضادة للدبابات يحتاج اليها المظليون مباشرة بعد وصولهم الى اليابسة .

ففتحت لهم المستودعات من أجل هذه الغاية ، وأخرجت المدافع الثابتة الاميركية – ١٠٦ – التي كانت قد ارسلت حديثاً لاستعمالها فوق سيارات الجيب . ومدفع مدهش ذو انبوب طوله ٣ م ٢٠ ، مثقوب في طرفيه ، ذو قوة لم يبلغها مدفع مثله من قبل أبداً . فهو يخترق اقوى انواع التدريع المعروفة ، ثم لا يزيد وزنه على ٢٥٠ كيلو غرام . إنه يقذف بنار شديدة الى الوراء يمتد لسانها ٣٠ متراً مما يفرض شيئاً من التحوط والحذر . وهو لا يستطيع ان يطلق قذيفته غير مرة واحدة . فاذا اصيبت الدبابة المستهدفة فقد زالت من الوجود . وكان العسكريون في حاجة الى اسبوعين اثنين لتنظيم فرقة المظليين العاشرة وتجهيزها . ولكن مجموعة اولى من المظليين الفرنسيين قد وصلت الى قبرس منذ الايام الاولى لشهر آب . فبعثت الدهشة في العالم كله ولا سيما في مصر . لقد كان الفرنسيون

يريدون القتال من أجل القناة .

أما فيما يتعلق بالفرقة الميكانيكية السريعة السابعة التي كان يجب ان تطأ أقدام بعض رجالها أرض بور سعيد ، بينما كان القسم الاكبر منها يقوم بإبحار طويل خلال شهر كامل دون النزول الى البر من الجزائر الى مالطة ، ومن مالطة الى قبرص ثم من قبرص الى بور فؤاد ثم رجوعاً الى الجزائر ، فقد اعتبرها الجنرال غرونتر واحدة من احسن فرق جيش الاطلسي .

لقد كانت، في الحقيقة ،وحدة طويلة التجربة صالحة للعمليات الذرية . عبئت منذ وقت قريب ،وبلغ من قوتها الآلية ان فيها سيارة لكل ثلاثة من المقاتلين .

وبما أنها كانت قد نقلت من المانيا الى الجزائر لتهدئة الحالة فقد تركت اسلحتها الثقيلة وراء الرين . وكان جنودها يناورون في الشمال الافريقي في تشكيلات خفيفة ضد الثائرين .

لقد وجب ان تجمع اجزاء هذه الفرقة الموزعة بين المانيا والجزائر وان تجهز لغاية ثالثة : هي غاية جيش يخوض معركة صحراوية ، بشروط بدائية ، مختلفة تمام الاختلاف عن شروط الحرب الذرية .

انه تحول ثالث ، تحقق خلال ثلاثة اسابيع يعجز اي جيش آخر في العالم عن تحقيقه بمثل هذه السرعة . هذا ما كان يقوله احد الخبراء الاميركيين .

إن هناك رجلاً واحداً يستطيع الحيلولة دون ارسال حملة نهباً وتعقباً ، انه الوزير المقيم في الجزائر السيد لاكوست ،

فقد كانوا ينتزعون منه خير جيوشه ولكن لاكوست الذي استشير في هذا الامر اجاب :

– ان فرقة فرنسية في مصر تساوي اربع فرق في الجزائر . فالهجوم على مصر يحقق له امنياته كاملة .

في بداية آب ، وصل الى لندن القائد الفرنسي للجنة التخطيط الفرنسية البريطانية . وهو قائد الحملة (A) . انه ضابط مجهول من قبل الرأي العام ، مؤتمن ، ودبلوماسي لبق ، يتكلم الانجليزية كما يتكلم الفرنسية ، موهوب بمهارة عرض عجيبة ، حتى ان مهنته كلها قد ظهرت وكأنها كانت تعده للقيام بمثل هذه المهمة .

لقد كان مراكشياً حائزاً على شهادة ضابط أركان حرب ، اشترك في شهر آب من سنة ۱۹۳۹ في بعثة دومنك الى روسيا والمكلفة بتحقيق الاتصال مع الروس ضد هتلر .

ثم سجن خلال أيام الاحتلال لاشتراكه في أعمال المقاومة ، وكان في غواصة الجنرال جيرو حين اجتاز هذا الاخير البحر الى أفريقيا الشمالية بصورة سرية ، ثم قاد طابوراً خلال معركة تونس ، وشارك كضابط في هيئة الاركان في معركة ايطاليا . ثم أصبح رئيساً للمكتب الثالث في جيش الجنرال دي لاتر الاول . وهي وظيفة تتطلب العبقرية في كل ساعة وتحقيق المستحيل في كل الدقائق .

والخلاصة أنه كان دماغاً تحت قبعة عسكرية ، بوجه شاب لم يكد ينضج بعد ، مع خصائص سفير ، وعصا ماريشال ،



واعصاب هادئة هيأتها تجربة النضال في كل المواقع .

كان الجنرال بوفر في لندن بثياب مدنية يجهل الناس طبيعة مهمته . وكان ينزل درجات أقبية القيادة العسكرية القائمة تحت نهر التايمز ، تحيط به قبضة من الضباط في ثياب مدنية ايضاً . لقد كان يعمل في غرفة منارة بالكهرباء كمن حكم عليه بالموت ، خلال شهرين ونصف شهر مع رؤساء الحملة البريطانيين ، وفي سرية مطلقة . انهم لم يكونوا يشعرون بالزمن الذي يمر سراعاً .

أما قائد الحملة المنتظر السير تشارلز كيتلي فقد كان فارساً ذا تكوين مهيب ، ولباقة عظيمة . وقد قصد من هذه اللباقة ان تكون وسيلة لتحقيق الانسجام التام بين الاسلحة الثلاثة لكل من البلدين ، « عدا الاشارة الى المظليين » بحيث انها اصبحت في مجموعها ثمانية اسلحة تحتاج الى تناسق في الخطط والنيات والحاجات . والحق ان التفاهم الودي قد كان كاملاً تحت نهر التايمز .

كان السيد تشارلز يمارس قيادته العليا للقوات البريطانية في قبرص فلا يأتي الى لندن الا غراراً . وكان يترك امر العناية بتنظيم المعركة في تفاصيلها الى قائد عملياته العسكرية الليوتنان — جنرال ستوكويل الذي سيشرف فيما بعد على عمليات التنفيذ .

أما ستوكويل فقد كان في الجيش البريطاني شيئاً فريداً ممتازاً ، فسجل رقماً قياسياً في تقدمه العسكري اذ انتقل من

رتبة مقدم الى رتبة جنرال خلال خمس سنوات فقط . انه طويل ، رقيق ، يكاد يكون سريع العطب ، مع شاربين خفيفين فوق الشفتين ، وقسمات في وجهه ناعمة ، وعصا تحت ذراعه ، انه تجسيد بريطاني للفارس « أتوس » ، وهو معجب بابطال دوماس ، فاختار لعملياته اسم « موسكيتير » اي الفارس بعد ان استغني عن الاسم « هملقار » في أواخر آب لوضع مشروع جديد .

لقد اكتشف الجنرال بوفر في شخصية الفارس ستوكويل انجليزياً فيه من خصائص الانجليز أقل عدد ممكن . فهو نشيط ، سريع ، كريم ، ذو سهولة تامة في التعبير ، جدير بتوبيخ مقدم بعنف غير مألوف في مركز قيادة صاحبة الجلالة ثم مرافقته الى نادي الضباط ليباريه في لعبة تصويب الاسهم بعد ذلك بنصف ساعة .

وقد استطاع في بور سعيدان يغزو قلوب الصحفيين الافرنسيين فخرج يوماً ، ليلة عمليات الانزال ، من مؤتمر صحفي ، وهو يتمايل في خطوات راقصة ويلقي بقبعته في الهواء .

ثم امسك بها بمهارة ضارب الطبل ومدها الى الصحفيين قائلاً :

– جنرال عاطل عن العمل ! حسنة لله .

كان ستوكويل ككل الضباط البريطانيين المشتركين في الحملة تقريباً من عشراء الشرق الاوسط . مما يمنحه خبرة بالبلاد العربية وببعض الاوهام الشائعة . لقد كان يقود القوات البريطانية الاخيرة التي غادرت فلسطين سنة ١٩٤٨ بعد الحوادث

الدامية التي مهدت لولادة اسرائيل .

وعندما الحقت عملية التدخل بالهجوم الاسرائيلي في اواخر تشرين الاول كان الجنرال ستوكويل يعتبر جيش الجنرال موسى دايان عدواً يجب ابعاده عن القناة ، فعله مع المصريين .

وقد أثاره الاقتراح الفرنسي بالحاق ضباط اتصال اسرائيليين بالقيادة في قبرص إثارة شديدة فقال :

— إنني أخنق بيدي هاتين اي ضابط اجده هنا منهم !

كان بوفر الفرنسي أهدأ اعصاباً واكثر انجليزية من ستوكويل الانجليزي . ولكن كلاً منهما كان ينطوي على كثير من التقدير والاحترام للاخر : وقد تعاونا تعاوناً تاما بعد ان انتقلا من وضع الخطط الى التنفيذ .

كان بوفر ، الرجل المفكر الخيالي ، ذا التجربة البعيدة في العمليات التكتيكية وحيل حرب الانصار كما هو في مبتدعات الجيش الذري الحديثة ، ملاحقاً باطراد من قبل باريس : اعمل بسرعة ، عبيء حملة سريعة ، كن على استعداد لتوجيه الحملة عند اول فرصة. اما ستوكويل الذي كان محارباً على الطريقة التقليدية الاتباعية والذي صنعه بطء الجلالة البريطانية ، فقد كان سجيناً في لندن متأثراً في علاقاته اليومية باقرانه من ضباط الجيوش الاخرى وكان يشاركه في تحمل مسؤولية الحملة ماريشال الجو « بارنت » المكلف بالقضاء على قوة عبد الناصر الجوية . ثم الاميرال دانفورد سليتر ، وهو بحري من المدرسة القديمة ينظم معركته كما لو أنه يتشبه بنيلسون . جامد تنقصه

المرونة . مقتنع بعدم وجود أية حقيقة بحرية خارج البحرية الملكية .

وفي موازاة الجنرال كيتلي القائد الاعلى في الشرق الاوسط، عين الاميرال بارجو قائد الاسطول الفرنسي في المتوسط، قائداً مساعداً أعلى في الحملة المشتركة وقائداً أعلى للقوات الفرنسية مجتمعة .

لقد بنى له السيد تشارلز كيتلي منزلاً فخماً الى جانب منزله في ايبيسكوبي وخصص له مكتباً الى جانب مكتبه .

ولكن الاميرال الحار لم يكن يستطيع احتمال مثل هذه العزلة الرائعة . فكان في حركة دائمة بين اسطوله الذي كان ينظمه مع الاميرال لانسلو، وبين لندن حيث وضع له مكتب تحت تصرفه في « الدور الأول » من بناية « المكتب ـ الحربي » ، وبين باريس حيث كان يفاوض باستمرار كلا من وزير الدفاع الوطني ووزير البحرية .

كانت مفاهيمه العسكرية الجريئة مصدر ازعاج متكرر للاميرال الاتباعي السيد دانفورد سليتر .

ومن الحق ان يقال ان امثال الاميرال بارجو قد صنعوا خصيصاً لاثارة أعصاب أميرال بريطاني وازعاجه، فلم يكن رجل عسكري أقل منه تقيداً بالمناهج التقليدية المتبعة . انه جول فرن جديد ، وروائي مبكر النضوج يحمل نجوماً وردنين عسكريين .

انه يسبق المعركة في وضع مفاجآتها وتخيلها، بينما قد يكون



آخرون متخلفين عنها . اني اذكر حديثاً أجريته معه بعد تحرير فرنسا مباشرة . فكان يصف لي كيف ان في مكنة هتلر ان يخلص نجياً من الصعوبات التي تعترضه ، بتنظيم حرب انصار ضد الروس والاميركيين مستفيداً من تجربة معـــارك الانصار الاوكرانيين والافرنسيين ، بحيث يندمج المنهج الالماني بخيال بارجو ، وكان ما قاله لي على حظ من الروعة كبير ، ذا طابع عملي ممتاز . ومن حسن الحظ ان هتلر لم يرزق شيئاً من آراء ضابط البحرية هذا ، فانتحر في اقبية المستشارية .

كان بارجو قائداً لاحدى السفن الصغيرة سنة ١٩٣٠ حين وضع خطط التنظيم الجوي والبحري ونال جائزة الاكاديميـة البحرية، ممنوحة من قبل مجموعة من امراء البحر يندر أن يجتمعوا فوق هذه الارض . لقد كان يمزج بين الخدمة في البحر وفي هيئة الاركان العامة في شارع «رويال» وبين العمل الصحفي والانتاج العلمي والعسكري. وقد كتب عشرة مؤلفات في التاريخ والتطور الجوي والبحري، خلا عدداً كبيراً من المقالات المنشورة في الصحف . أما آخر كتبه، فقد ظهر في السنة الماضية تحت عنوان: « نحو بحرية العصر الذري » .

لقد وضع سنة ١٩٣٩–١٩٤٠ جهازاً رائعاً للاستعلامات في المتوسط بعد ان كلف بعمليات اتصال هامة مع البحرية الملكية اثناء الاحتلال الاجنبي. وقد أسر، ثم هرب ، والتحق بالجزائر واصبح رئيساً لهيئة أركان قيادة الجنرال جوان قبل ان يتسلم قيادات مختلفة اخرى في البحر .

انه صحفي لامع ومحاضر ممتاز كاعظم ما يكون رجل في ثوبه العسكري . والله يعلم ان العسكريين أقل الناس شهوة الى الكتابة ، ولكن البحريين جميعاً حتى القدماء منهم يتسابقون الى مطالعة ما يبتدعه في كل مناسبة . انه رائع مثير .

يضاف الى هذا انه من اسرع الناس الى منح تقدير لمستحقيه واكثرهم الحاحاً في طلب النفوذ بالتقدير الذي يستحقه . ويؤخذ عليه انه يميل الى ان يرسم في لوحات تاريخية ، وبما انه على شبه كبير باميرالبحر « كراس » فقد رغب الرسام المكلف بانجاز اللوحة التي كانت ستزين مربع الطراد « دى كراس » في ان يرسمه في لباس قائد اسطول لويس السادس عشر . فلم يكن اكثر منه سروراً واستمتاعاً بتحقيق هذه الامنية .

والتزويق الزاهي طبيعي بالنسبة الى هذا البحري ، كما كان بالنسبة الى دي لاتر . اذكر انه كان واقفاً في مؤخرة سفينة القيادة يحيط به بحريان في موقف التهيؤ الدائم ليلة عملية الانزال ، فظهر وكأنه يرتفع من بين زبد البحر الذي يحيط به من كل جانب . صورة ذات روعة أخاذة يجب ان تسجلها ريشة فنان في جو من أبهاء البحرية .

امـــا سيئاته فهي في انه يكشف عن نفسه ، ويقفز من موضوع الى آخر بسبب سرعته في التفكير . ورغبته في سرعة الانجاز قد تدفعه الى ترك ملف من الملفات ، او نسيان مخاطبه ليعالج موضوعاً تفصيلياً يشغله . وهو دقيق ورفيق للاحداث الصغيرة . وأخيراً فهو موهوب بعشرة حيوات ، خـلا مخيلاته

الكثيرة . وقد قبل به المظليون منذ الحقوا بقيادته .

والخلاصة انه كان جديراً بالمهمة المسندة اليه في عملية التعاون الفرنسي البريطاني. اما الضباط التابعون لقيادته الى جانب الجنرال بوفر فهما أمير الجو لانسلو قائد الاسطول وجنرال الجو بروهون .

كان لانسلو من اكثر الضباط شهرة عند البريطانيين ، بقامته الصلبة ومهابته، يعلوه شعر أبيض تحت قبعة ملونة ، لقد كاد يغرق لهم، قرب مدغسكر ، دارعتهم « ريزاليوشن » سنة ١٩٤٣ ، بينما كان تحت قيادة الماريشال بيتان يقود الغواصة « بيفازيا » .

ثم رجع الى طولون بينما كان البريطانيون ينتظرونه في مشارق جبل طارق بقنابل الاعماق وقذائف المدافع حيث لا سبيل له الى الخلاص منهم ، ومن أجهزة الرادار التي تراقبه . فارسل بالراديو رسالة الى القيادة في جبل طارق يقول فيها : ان الغواصة الفرنسية « بيفازيا » التي هاجمت الدارعة « ريزاليوشن » أمام مدغسكر ستجتاز المضيق في طريقها الى طولون .

ولما وصلت الغواصة الى المضيق وارتفعت فوق سطح البحر كانت الطرادات والدوارع المعدة لقذفها بالقنابل مصطفة في تشكيلات القتال ، ثم ارسلت قذيفة واحدة تكريماً لها وتقديراً .

والواقع ان الرأي العام الفرنسي لم يدرك ضخامة الحملة المصرية، فقد كانت أعظم حملة برمائية في تاريخ البحرية الفرنسية منذ حملة الجزائر سنة ١٨٣٠ وحملة الدردنيل سنة ١٩١٥ .

لان عملية الانزال في النورماندي سنة ١٩٤٤ لم تجتز غير مسافة من البحر قصيرة لا تكاد تتجاوز خمسين كيلو متراً ، وكانت تحمل معها مرافئها .

اما « هملقار » وخليفتها « موسكيتير » فقد انطلقت من لندن على مسافة ٤٥٠٠ كيلو متر ومن مرسيليا والجزائر على مسافة ٣٠٠٠ كيلو متر . ثم توقفت قليلاً في مالطة على مسافة ١٥٠٠ كيلو متر وفي قبرص عـــلى مسافة ٤٠٠ كيلو متر من الشاطيء المصري .

أما تفاصيل القوة الفرنسية لهذه الحملة فهي : ثلاثون سفينة من سفن القتال ، وحاملتا طائرات ، وثلاثة أساطيل صغيرة منقولة من قوة الجو ، وثماني سفن مساعدة ، وثلاثون سفينة بر مائية ، واثنتان وخمسون من سفن المؤونة والحمل ، ومئتا طائرة وتسعة الاف سيارة ، وثلاثون الف جندي .

وتألفت القوة البريطانية من مئة سفينة حربية ، ثلاث مدرعات ، اربع حاملات طائرات ، وغواصات وثلاثمئة طائرة وخمسة واربعين الف جندي .

كانت قبرص حاملة طائرات منحتها الطبيعـة للبريطانيين ولكن البريطانيين لم يجعلوا منها قاعدة بحرية .

فمرفأ فاماغوستا مثلاً ما يزال يحتفظ بهزال مرافيء القرون الوسطى حيث كان الصليبيون يخرجون منه . فلا مكان في رصيفه لاكثر من ثلاث او اربع سفن للتحميل . أما السفينة ذات المئة متر طولاً فانها تناور فيه بصعوبة فائقة . ومنذ توقفت البحرية

الشراعية تراكمت الرمال على شاطيء هذا المرفأ حتى ان عمقه لا يزيد على تسعة أمتار .

أما المرفأ الآخر –ليماسول– فهو يمد في عرض البحر رصيفاً لا يتجاوز طوله العشرين متراً ، والسفن التي تقصده مضطرة الى القيام بعملية تفريغ معقدة متسلسلة ، فاذا غضب البحر اضطرت الى الدوران حول الجزيرة لتحتمي برابية من روابيها .

ولعل أول مـا يخطر في بال ضابط من ضباط الاركان هو تنظيم اسطول من السفن البرمائية ، بحيث يستغنى عن المرفأ في عمليات الانزال . ولكن الصعوبة الفائقة بسبب فقدان المرفأ في الجزيرة، والتي يستحيل معها تجميع عشرات الآلاف من الرجال مع سياراتهم واجهزتهم المختلفة ثم تحميلهم في السفن البرمائية ذات القعر المسطح ،تفرض عملاً اعدادياً قـــد يطول سنوات كثيرة .

فاذا أعد اسطول من السفن الصغيرة يضع مراسيه في عرض البحر تعرضت وحـداته عند ظهور العاصفة للتفرق والفوضى والتصادم .

ومن هنا نشأت التعقيدات المزعجة ، فتقرر ان تبدأ عملية الابحار من لندن ومرسيليا والجزائر ومالطة بحيث يتم التناسق في تحركات السفن خلال شهر ونصف . أمـــا السفن الفرنسية التجارية المصادرة وعددها٥٢ فقد طلب اليها القيام بثلاث دورات بين الجزائر ومصر، اي قطع مسافة لا تقل عن ١٨٠٠٠ كيلو متر قبل ان تنزل حمولتها . فكأنها كانت تبحر الى جزائر هونولولو.

وكان من المفروض ان تطأ الفرقة البريطانية الثالثة أرض اليابسة في ١٥ تشرين الاول آتية من لندن بعد سفر بحري يدوم ١٥ يوماً .

كما كان من المنتظر ان تصل النجدات الافرنسية الاخيرة في ١٥ كانون الأول .

وهكذا وضعت سلسلة من الخطط تحت عنوان « عملية هميلقار » بينما كانت الوحدات البحرية تتجمع والوحدات البرية تتكون. وكان من مشاريع «هميلقار» ان يتم الانزال في ليبيا. ثم رئي الاستغناء عنه بسبب ما يجره من التعقيدات الدولية .

واقبلت البحرية الفرنسية التي يمثلها أمير البحر لانسلو على حصر قوائم سفنها البرمائية ، فوجدت في مستودعاتها وورشها مجموعة اصابها الصدأ منذ أيام التحرير ، فأمرت باعدادها ، وهي التي كان اكثرها يعمل في مستنقعات الهند الصينية .

وكان بعض هذه السفن في عرض البحر آتياً من سايغون . ولا سيما السفينة « لافودر » ، ذات القيمة الكبيرة في مثل هذه العمليات . فقد كانت تمخر البحر بسرعة ١١ عقدة في الساعة. ولم يكن من المعقول ان يجازف بارسالها عبر قناة السويس خوفاً من ان تحجز فيها في كل وقت. أما اذا دارت حول رأس الرجاء الصالح فانها لن تبلغ الجزائر قبل اوائل ايلول .

واتفق الفرقاء على اعطاء حملة « موسكيتير » وجهها التاريخي في اواخر آب او اوائل أيلول .

وكانت خطتها الاولى ،التي وضعها المقدم الفرنسي « برا »، تقول باجراء عملية الانزال في الاسكندرية .

فمينـــاء الاسكندرية هو الميناء الوحيد الحديث والمزود بالارصفة اللازمة والآلات الرافعة والاجهزة المختلفة التي تسمح للاسطول المغير بالاقتراب سريعـاً من الشاطىء ، بحيث تصل الحملة في تشكيلتهـــا القتالية مرة واحدة مع اجهزتها المرقمة المنجزة .

وغاية هذه الحملة هي القاهرة . فلا يغزو الجيش منطقة الدلتا، بل يأخذ طريق الصحراء الغربية ، فيكون للمفاجأة أثرها الفعال، وينتهي عهد عبد الناصر .

ومن سيئات الغارة على الاسكندرية مخاطر الاصطدام بسكان مدينة كبيرة ، ثم حدوث التخريبات الضخمة . وقد تتحول منطقة الدلتا الى ميدان لحرب الانصار ، وبما ان الحملة في حاجة الى اجتياز النيل بسبب ان القسم الاكبر من القاهرة هو في الضفة الشرقية منه ،فان الحاجة الى الجسور التي تستعمل بديلاً عن الجسور المهدمة شديدة ملحة .

هذا كله بالاضافة الى تصميم الاسطول السادس الاميركي على الحيلولة دون بقاء الاسطول البريطاني الفرنسي جنباً الى جنب مع السفن المصرية الصغيرة في ميناء الاسكندرية .

واخيراً فان عملية « موسكيتير » لم تكن تستهدف القناة بل الحكومة المصرية بالذات .

في ذاك الوقت بدت مقاومة شديدة ، تزايدت بسرعة

ظاهرة في بريطانيا ضد عملية التدخل العسكري . ولم يكن العمال وحدهم هم الذين يخاصمون السيد انطوني ايدن ، بل انضم اليهم رجال الشركات البترولية ، الذين كانوا يتخوفون من المستقبل المظلم ، ورجال المصارف الذين كانوا يشرفون على عمليات مالية ضخمة في الشرق الاوسط ، يضاف اليهم الاساقفة ، وقسم من الصحافة المستقلة . فارغم ايدن على ان يضع مهمة تسوية هذه القضية بين يدي السيد داليس .

وفي اواسط ايلول صرف النظر نهائياً عن القيام بحملة مباشرة على القاهرة ابتـداء من الاسكندرية . فدعيت اللجنة العسكرية السرية الى اعادة النظر في خطط عملية «موسكيتير» وتركيز الاهداف في قناة السويس .

فتقرر النزول في بور سعيد ، ثم التوجه الى السويس . وفي حالة اصرار عبد الناصر على القيام بهجمات متتابعة ضد قوات الاحتلال من سيناء في الشرق والدلتا في الغرب ، يرغم المحتلون عند ذلك على التوجه الى القاهرة واحتلالها لوضع حد نهائي للمعركة .

لهذا كله ، وجبت اعـــادة النظر في الخطط العسكرية والبحرية التي وضعت من قبل ، بحيث توضع القوائم اللازمة بالتجهيزات المختلفة من وقود وذخيرة ودبابات تسمح لعدد من الرجال لا يقل عن ١٥٠٠٠ بالوصول الى السويس خلال خمسة ايام فقط .

والمعضلة الكبرى في هذه العملية هي بور سعيد بالذات ،

التي لم يكن لها من المرفأ الا اسمه ، فهي محطة للقناة تتجمع فيها السفن في قافلة موحدة وتنتظر قادتها البحريين . وهكذا فان التفريغ الضروري يجب ان يحدث بواسطة السفن البرمائية مع ما تقتضيه هذه العملية من تعقيدات مختلفة ، وانتظار طويل حتى تتم عمليات تجهيز الارصفة الاصطناعية والاطواف المربعة المصنوعة خصيصاً لمثل هذه الغاية .

وقد كانت الصعوبة من الشدة بحيث ان المسؤولين قد فكروا في الاتيان بارصفة تامة البناء والتجهيز من جزيرة قبرص كتلك التي استعملها ايزنهاور في معركة النورماندي ليحول الشواطيء الرملية الى مرافىء ضخمة واسعة .

ولكن بحرياً واحداً لم يتحمل مسؤولية جر هذه الارصفة عبر ٤٠٠ كيلو متر من بحر قد يثور في كل وقت وتعصف به الرياح الشديدة .

وهكذا وضعت خطة الانزال بحيث تتم عملياته بواسطة السفن البرمائية . وكان البحريون الفرنسيون يراقبون سير المائة « لافودر » حول القارة الافريقية مع ما تحمله في احشائها من مراكب ضرورية بقلق شديد . أما في دور الصناعة البحرية فقد كانت عملية التجديد للسفن البرمائية تجري بسرعة بالغة في الليل والنهار .

وكان من حسن حظ المنظمين للحملة أنهم وجدوا على مسافة عشرة كيلو مترات من بور سعيد شاطئاً نموذجياً صالحاً للانزال .

كان الفرنسيون فقراء جداً في السفن التي تصلح للوصول الى البر ومد جسر سريع ثم قذف ما تحتويه من سيارات واجهزة مختلفة لانهم لم يكونوا يملكون منها غير اربع فقط . امـــا البريطانيون فقد كانوا أغنى منهم في هذا النوع من السفن لانهم يملكون منها ١٧ . وبالعكس كانت تنقصهم المراكب الصغيرة التي تحمل جنود الهجوم وتستطيع الوصول الى بر اي نوع من انواع الشواطىء .

وهناك صعوبة اخرى رئيسية في عملية بور سعيد : فالحق ان الانزال فيها لا يعني انزالاً في مصر بل في جزيرة قائمة وسط بحيرات صغيرة يصلها بالبر سد صناعي طوله اربعون كيلو متراً ومواز للقناة .

ان الدفاع عن هذا المرتفع من الارض سهل يسير بواسطة حقول الالغام والمدافع المخبوءة في باطن الارض . ومن الممكن ان تعترض المغير مزعجات كثيرة ، ومن الممكن ان يفقد هذا المغير شيئاً كثيراً من الزمن لاجتيازه ، والمئات من الدبابات المرسلة لا تصلح لشيء ما لم تكن فوق ارض جامدة قائمة وراء القنطرة ، فلا تستطيع ان تمرّ الا واحدة وراء الاخرى ، فاذا وقفت دبابتان مصريتان في مكان مناسب امام اول دبابتين من طابور دبابات المغير فانهما تساويان بقوتهما ٤٠٠ دبابة ، مع العلم ان عبد الناصر يملك اربعمئة دبابة .

اما فيما يتعلق بالماء الصالح للشرب فقد وضع المخططون للامر عدته تحسباً لكل طارىء ، فقد يغلق عبد الناصر أنابيب

المياه ، لهذا حملت كل سفينة ناقلة بين ١٠٠ و ٢٠٠ طن من الماء الصالح للشرب ثم أعيد النظر في التوقيت ، توقيت تواريخ الانزال والتحميل والتفريغ والاقتراب من الشاطىء . ولكي يدرك القارىء ضخامة حملة « الموسكيتير » نخبره ان الكتاب الذي جمعت فيه المعلومات المختلفة باللغة الانجليزية تبلغ ثخانته ٢٠ سنتيمتراً ، اما باللغة الافرنسية فقد بلغ حجم كتابين من معجم لاروس .

وكان كتاب خطط الانزال المرسل الى رجال البحرية يساوي حجم لاروس الصغير . وبلغت ثخانة كتاب تعديلات الخطط ١٥ سنتيمتراً .

لقد وضع التنسيق بحيث تستطيع الدبابات والسيارات الخارجة من السفن البرمائية الصغيرة ان تدرج فوق اليابسة في الوقت نفسه الذي تنزل فيه بواخر المستودعات حمولتها من الوقود ، كما يجب ان تحمل المترجمين الى العربية الذين يدلون رجال الحملة على معالم الطريق ويساعدونهم على التحقيق مع السكان والاسرى . ولا يسع الاسطول ان يبحر قبل ان تكون آلات الراديو التابعة لقيادة الاركان على صلة تامة بعضها بالبعض الاخر .

اما المراسلون الحربيون في بور سعيد فسيفرض عليهم النوم في العراء ثمانية أيام لأن انزال الخيم والسرادقات ان يتم قبل اليوم الثامن الذي يلي عملية الانزال .

وهكذا كلما مر الزمن منذ اوائل أب كانت الحملة تتضخم

وتزداد ثقلا . وكانت كل مصلحة من المصالح تتخيل في كل يوم صعوبة جديدة فتحاول تذليلها . لقد وعد الاتحاد السوفياتي حكومة مصر بارسال غواصات اليهـــا . فالحقت بالاسطول غواصات مماثلة ومقاتلات للغواصات . وكانت الحكومة المصرية تخرج من المستودعات البريطانية التي وضعت تحت حراسة بضع مئات من المدنيين ما كانت تحتاج اليه . فكان في معسكر التل الكبير مثلاً ما يزود مليون رجل بما يحتاجون اليه من الألبسة كما كان في بعض هذه المعسكرات طرابيد والغاماً . ولهذا تقدمت كاسحات الالغام البحرية لتنظيف البحر من الغامه . كما دعيت في الدقيقة الاخيرة كاسحات بريطانية خاصة لتقطع الحبل الحديدي الذي قد يمده عبد الناصر حول بور سعيد ، ثم طبعت في مطابع خاصة في المانيا اوراق نقدية كتب عليهـــا « الاحتلال في مصر » .

وفي هذه الاثناء كانت الشركات البحرية الفرنسية ترسل النداء تلو النداء الى البواخر الماخرة في البحر فتصادرها لمصلحة هذه الحملة وتعدها للاشتراك فيها .

واخيراً تقرر ان تبدأ حركة الساعة الكبرى في اواسط ايلول . وسجل المراسلون الصحفيون في شارع القديس دومينيك في مصلحة استعلامات الدفاع الوطني تحت قيادة الكولونيل « لاشروا » وفي مصلحة لندن المماثلة لها . أما المقدم « فروا » فقد كان من واجبه أن يرافق هؤلاء جميعاً وفي جوارير مكتبه الشارات المطرزة واذونات تجهيزاتهم العسكرية .

وكان المصريون ينتظرون عملية الانزال بين الثالث عشر والرابع عشر من ايلول . ولكن انتظارهم كان قبل الاوان . وفي الثاني والعشرين من ايلول اصبحت الحملة او كادت على قدم الاستعداد . فكانت السيارات المدرعة التابعة للفرق الميكانيكية السريعة السابعة تقوم بتمارينها المختلطة مع البحرية فوق شواطيء الجزائر ، وهي تستهدف في مناورتها تحرير مدينة بوجي من ضغط الثوار الجزائريين . كما وضعت على قدم الاستعداد سفن كثيرة ، تستطيع نقل ثلاث فيالق باسلحتها الكاملة من الجزائر الى قبرص خلال ثلاثة ايام فقط .

اما القادة فكان يتزايد شعورهم بعدم جدوى جزيرة قبرص اكثر فاكثر .

وكان السيد ايدن على الخصوص غير مستعد بعد لتقرير بداية الحملة . اما موافقته للسيد موليه فلم تضعف ابداً . لقد كان مستعداً دائماً للتدخل شرط حضور الفرصة المناسبة .

وكان الرئيس ايزنهاور يقول : انه لا يسعه ان يطالب الدول المثارة بالقوة ، بعدم الرد بقوة مماثلة . ثم يضيف : ولكن المهم ان تحضر المناسبة التي تبرر استعمال القوة .

وعلى هذا فالمناسبة لم تحضر . وعبد الناصر كان يبعدها بعناية تامة . وكان دالس قد اتى الى لندن ليمنح جمعية المنتفعين من القناة جسداً تحتاج اليه - ولكنه جسد لا اسنان له . فكان موقفه مصدر خيبة مريرة لكل من ايدن وبينو . لقد كان المقصود من الجمعية ارسال قافلة من السفن الدولية تجتاز

القناة دون ان تدفع الرسوم المطلوبة للمصريين ، فاذا تركها عبد الناصر تمر فقد خسر هيبته . أما اذا اعترض طريقها فهو يحول دون حرية الملاحة بحيث يصبح اللجوء الى المدفع الزامياً .

لقد جعل مؤتمر لندن الثاني من هذه الجمعية جماعة من أصحاب السفن المسالمين الذين سمح لهم بدفع رسوم المرور الى عبدالناصر ، فكان فشل المفاوضات مخيباً للآمال .

واستقل داليس الطائرة راجعاً الى بلاده في ٢٢ ايلول . وحدث تلاق أخير في « داوننغ ستريت » في لندن بين بينو وايدن ، انفجرت فيه مرارتهما واتفقا على التخلص نهائياً من هذه المعضلة .

أما الحكومة الفرنسية فقد كانت ترى ان يحدث التدخل المسلح بصورة مباشرة . وان الحملة العسكرية المجهزة لفرض دخول القافلة الدولية بقذائف المدافع الى القناة موجودة تحت تصرف حكام الدولتين .

ولكن ايدن اقترح اللجوء ثانية الى هيئة الامم المتحدة .

وثار داليس فغضب غضباً شديداً .

لقد عارض وزير الخارجية الاميركية في تحويل ملف السويس الى مجلس الامن ، لان النقض الروسي سيعترض طريقه بصورة آلية ، بحيث تنتهي الوسائل السلمية وتفلس .

— من الضروري ان نتصل بداليس، هذا ما قرره ايدن وبينو وهما في « داوننغ ستريت » .

فاتصل ايدن بالمطار تلفونياً ، ولما كانت الطائرة قد أقلعت أرسلت اشارة لاسلكية الى واشنطن تطلب من داليس الا يصرح بشيء الى الصحفيين . ولكن داليس حط في جزائر برمودا ليغتسل فيها والسيدان ايدن وبينو يجهلان ذلك .

وهكذا لم يعلن صحفياً عن تحويل الملف الى مجلس الأمن الدولي . ولم يجد داليس في هذا ضيراً شديداً . وقد أبرزت المناقشات في المجلس هذه الحقيقة ، فامتدت الابحاث الى ١٣ تشرين الاول . ووقفت تسع دول ضـــد دولتين – روسيا ويوغوسلافيا – الى جانب بريطانيـــا وفرنسا . غير ان لندن وباريس لم تكلفا مع ذلك بتكوين حملة التدخل الدولية .

وقال السيد لويد وزير الخارجية البريطانية : اننا سنعمل كل ما يمكن عمله لتحقيق خطتنا . ثم أعلن في بداية المناقشات ، ان اللجوء الى القوة لن يتم الا كتدبير أخير ضروري .

ثم كان الجميع أمام هذا التدبير الاخير .

فاعلن داليس : ان المفاوضات ستتصل كما لو لم يكن نقض روسي .

حدث هذا كله في ١٣ تشرين الاول .

وفي ١٥ تشرين الاول توجه الجنرال شال الى لندن ليحيط السيد ايدن علماً بالهجوم الاسرائيلي . وفي ١٦ كان ايدن ولويد في باريس فتقررت حملة التدخل .

واستيقظ مشروع « الموسكيتير » النائم .

كان الجنرال بوفر على رأس قواته في الجزائر منذ ١٩

ايلول .

وفي ١٩ تشرين الاول جاءه الامر بالاستعداد لعملية ابحار سريعة . وبدأ لانسلو سلسلة من المناورات المضللة .

ثم تركت سفن حربية مرفأ طولون قاصدة ميناء بيروت بصورة رسمية . وحملت سفن في الجزائر أعلن عن اتجاهها رسمياً الى فرنسا .

وفي ٢٧ و٢٨ من تشرين الاول ابحرت قوات كثيرة لهدف مجهول ، ولكن الواقع ان الجزائر كلها كانت عالمة بالحقيقة . فهي تتساءل في كل صبـــاح عن مصير السفن الخمس عشرة التي صودرت للتوجه الى مصر . يضاف الى هذا ان ٢٠٠ من الطيارين في البستهم المدنية قد لفتوا الانظار بعد نزولهم في فندق سان جورج وهم المعدون لمرافقة الحملة الى قبرص .

اما البحرية فقد بقيت أمينة على سرها، فتلقى الضباط رسائل مغلقة طلب اليهم فضها في وسط البحر ، وكانت التعليمات تمنعهم من استعمال آلاتهم اللاسلكية وتعين لهم مكاناً للتجمع قرب الشاطىء الليبي. وهناك – اي عند الشاطىء الليبي – فتح الضباط مغلفاً سرياً آخر أمر بالانتظام في قوافل. أما الاركان البحريون فلم يكونوا قادرين على معرفة شيء آخر عن تنفيذ هذه الاوامر . لان آلات الارسال كانت خرساء . فكانوا يرسلون طائرتين لمراقبة تجمع السفن الصامت في قوافل . وظهر كل شيء وكأنه يحدث على أحسن ما يرام وفي حدود أقل فوضى ممكنة .

واتجهت السفن السريعـة الى مالطة لانزال وحداتهـــا

واسلحتها ، أما البطيئة فتابعت طريقها الى قبرص .

وقد احتفظ بسر الحملة حتى ان قائد احدى السفن التجارية استأذن في النزول الى البر القبرصي ليتلفن . وقال :

—يجب ان أطلب بور سعيد واسألهم هناك ان يهيئوا لنا حملاً من الخضرة الطازجة !

وقد لا يبعد ان يكون هذا القائد ذا سذاجة مصطنعة .

جدل عنيف في هيئات الاركان العامة

في جزيرة هوميروس

احيل الجنرال كيتلي ، القائد الاعلى لقوات الحملة الفرنسية البريطانية ، الى التقاعد بعد اخلاء بور سعيد دون ان يعطى تفسير لهذه الاحالة من قبل المكتب الحربي .

وقد قال الجنرال كيتلي لاصدقائه بعد رجوعه الى لندن : «ان ذنبي انني قد نفذت الخطط والتعليمات التي وضعتها الحكومة بين يدي » .

فالحق ان هذا القائد قد طلب اليه التكفير عن الاخطاء التي تقاسمها على قدر سواء كل من رجال السياسة والجيش .

ومن الممكن ان يكون السير تشارلز كيتلي قد اقتصر على القيام بمهمة الاله الوالد فترك امر العناية بتنفيذ الخطط الجامدة لمن ألحق بقيادته من العسكريين دون ان يضع الاحوال الدولية والحقائق الخارجية المحيطة بالحملة ، موضع الاعتبار .

كما ان من الضروري القول بان لندن هي التي كانت توسل اليه وحيها ، فتختار له نوع العمليات المطلوبة ، وتحدد له نياتها ، وتفرض عليه ترددها .

وقد لام الصحفي راندولف تشرشل ، ابن ونستون تشرشل ، في مقالة نقدية ، كلا من السيدين ايدن ولويد ، لانهما لم يدركا خصومة عبدالناصر الشديدة لبريطانيا العظمى منذ اخراج غلوب باشا من الاردن في شهر اذار السابق بتأثير من تدخل عبدالناصر . ولم يأخذا بعين الاعتبار خطورة التدخل السوفياتي في الشرق الاوسط

لقد كان هذا الشهر ، هو الفترة المناسبة لارسال فرقتين عسكريتين من المانيا الى قبرص .

فلو وضعت التكهنات بصورة مبكرة ، لاجرت قوة التدخل الى فاماغوستا وليماسول على سفن برمائية . وهكذا يحدث الانزال العملي بعد يومين فقط من اصدار الامر فيه . هذا كان على الاقل هو التخطيط البدائي ...

والحقيقة ، ان هذه الخطة قد وضعت موضع الدرس ، في اواسط تشرين الاول ، في العملية المقررة .

اما عملية « الموسكيتير » فكانت تنطوي على صيغتين اثنتين :

موسكيتير – أ – وضعها الفرنسيون لتحقيق حملة – عاصفة سريعة ، ٤٨ ساعة من القذف الجوي لتجميد الطيران المصري ، قذف مظليين ، انزال خفيف يبتدىء من قبرص بسفن برمائية ،

ثم غارة كاسحة سريعة على امتداد القناة مع طيران مرافق للطوابير . فاذا قضت الضرورة شيئاً وراء هذا ، بعد احتلال المجرى المائي ، فان هجوماً كاسحاً على القاهرة يكون كافياً للتخلص من عبد الناصر .

ان مثل هذا التدخل السريع يقلل من أخطار عملية ايقاف إطلاق النار التي قد يفرضها اتفاق روسي أميركي في هيئة الامم المتحدة ، ويكشف حقيقة وضع عبد الناصر العسكري ، لا سيا وان الجيش الفرنسي الذي فرضت عليه حروب الانصار خلال ١٧ عاماً اصبح متعوداً على العمليات الخفيفة والسريعة . وكان استعداد السياسيين والعسكريين في شارع القديس دومينيك أميل الى مثل هذا التدبير منهم الى القيام بظاهرة عسكرية ضخمة بسبب تجربتهم الطويلة في حروب المقاومة .

يضاف الى هذا كله ، ان الحكومة الفرنسية لم تكن تشارك السيد ايدن في ثقته التامة بحياد الاميركيين ، وسلبية الروس ، او المدد الطويلة التي وضعها البريطانيون في حملتهم وقامروا فيها على حلفهم مع اميركا وانشغال الروس بمشا كلهم مع الدول التابعة لهم .

فالخطة العاصفة التي اقترحها الفرنسيون كانت تعتمد على تقارير الملحقين العسكريين ، الذين يؤكدون ان الجيش المصري ذو مظاهر خداعة . فالطيارون ورجال المدفعية منه اعجز من ان يقودوا طائرات نفاثة او يستخدموا مدافع ٨٤ المقاومة الطائرات ، مع ما تستلزمه من استعمال اجهزة الرادار الملحقة بها . والشيء نفسه بالنسبة الى استعمال افراده بصورة مفيدة

للدبابات المثين -- ت ٣٤ - التي ارسلها الروس اليهم . فقد كانت السفن الروسية تفرغ في ميناء الاسكندرية حمولة اربع منها في كل اسبوع (على ان يسلم قسم من هذه الحمولة الى سوريا). ان مثل هذه المنحة في نظر الملحقين العسكريين هي بمثابة تقديم قطار كهربائي حديدي الى طفل في الثانية من عمره .

ومن بين آلاف القصص، التي كانت ترويها التقارير تلك التي تتعلق باستلام المصريين لدبابات « ا - ام - اكس » باذن من حكومة فرنسية سابقة .

فقد كان يرافق هذه الدبابات السريعة مهندسون من مصانع دلاهاي . ولكنها لم تكد تصل اليابسة في مرفأ الاسكندرية حتى اصر ضباط آتون من القاهرة على قيادتها ، فشرح لهم الفنيون كيفية قيادتها فاستقلها المصريون وادار وا محركاتها .

قال لهم المهندسون : انتظروا، فان هناك اشياء كثيرة تجدر بكم الاحاطة بها قبل القيادة .

ولكن الضباط المصريين أبعدوا الفرنسيين بخشونة بارزة وانطلقوا بالدبابات. فلم تلبث حتى اصيبت محركاتها بالخلل الشديد بعد ذلك بقليل .

فصرخ الضباط قائلين : ان الفرنسيين لصوص ! لقد باعونا قطعاً من الحديد ! (هذا ما تزعمه تقارير الملحقين العسكريين الفرنسيين) .

وقد وافق الاسرائيليون على صحة هذه الوقائع كلها . ثم استدركوا قائلين : ولكن الظروف ستتغير بسرعة بفضل

المدارس العسكرية ومراكز التدريب التي تفتتح بكثرة ظاهرة .

اما واضعو الخطط في أقبية نهر التاميز فقد تجاهلوا هذه الحقائق فتركت الصيغة الفرنسية منذ العشرين من تشرين الاول لاعتبارات عدة .

أولاً : ان قبرس قاعدة بحرية هزيلة ، عاجزة عن استيعاب سفن حملة التدخل الضخمة التي كانت تحمل رجالهم واجهزتهم لتنقل من ثم الى سفن الانزال التي ستحمل الجميع الى بور سعيد .

ثانياً : ان الحملة في حاجة الى السرعة في التجميع في الجزيرة ، ولكن السيد ايدن لم يكن راغباً في القيام باية حركة قبل ان تغزو اسرائيل منطقة سيناء ، لان دعوى « المفاجأة » المصطنعة كانت شيئاً ضرورياً بالنسبة اليه .

واخيراً فان الصيغة الثانية هي اكثر تجاوباً مع ما كان يشغل رئيس الوزراء البريطاني ، من تقليل في الخسائر البشرية والمادية الى اقصى حد ممكن ، بحيث اصبحت المعركة معركة نفسية اكثر منها حربية عسكرية .

لقد كانت الصيغة — ب — تعكس في الوقت نفسه مزاج السير انطوني ايدن الدبلوماسي ، وعقلية هيئة الاركان التقليدية ونفوذ الطيارين الذريين .

فكان الانزال الضخم بالمظهر الكبير .

لقد نظمت حملة « جوية نفسية » لعشرة أيام ، القذف بالقنابل

بعد نهاية مدة الانذار .

وكان رئيس الوزراء يعتمد لاسقاط عبد النـــاصر واثارة الجماهير العربية على ضجة الطبول . يقدم الانذار اولاً ، فاذا كان غير كافٍ لتحقيق الغاية ، فان هزات القذف العنيفة جديرة بالقضاء على كل مقاومة في مصر .

قد يكون هـذا هو الحقيقة لو ان طائرات الكانبيرا التي صنعت لحمل القنابل الذرية قد جعلت من القاهرة هيروشيما جديدة . او ان الطائرات المطاردة القاذفة قد هاجمت بالقنابل والصواريخ المراكز الحيوية للمدن الكبـــيرة وفجرت بيت عبد الناصر ، واوقفت السير في الطرقات والخطوط الحديدية .

ولكن المسألة ليست كذلك ، فالسيد ايدن لم يكن يستهدف غير المطارات بعد ارسال الانذارات المتعددة لاخلائها ، وغير القوافل العسكرية والخنادق الحربية . لقد كانت طبوله طبولاً مسرحية في الحقيقة .

وبعـد عملية التخويف الساذجة هذه ، نظمت الخطة عملية انزال ذات صخب شديد ، قصد بها ان تدوي في الشرق كله لتعيد الى الاسد البريطاني هيبته .

فيتجه الفرنسيون ، بعد القنطرة ، على امتداد القنـــاة ، الى الاسماعيلية والسويس ، ويتجه البريطانيون الى ابو صوير وقواعدهم ومطاراتهم المتناثرة في الصحراء .

اما الحركة الاخيرة ، في حالة ظهور مقاومة شديدة ، فهي الاتجاه الى القاهرة .

لقد ظهر هذا الانطلاق المهيب اليوم ، على ضوء الحوادث السابقة ، وكأنه خاضع للعقل الباطن ، وكان مستنداً الى ما اعتقده ايدن من الحياد المشجع للولايات المتحدة ، والثقة في ان قوات الامم المتحدة ستنضم الى القوات البريطانية والفرنسية التي تكون قد تقدمتها على امتداد القناة .

اما السيد موليه فقد كان كايدن راغباً في التقليل من خسائر المعسكرين الى اقصى حد ممكن ،ولكنه يرى مع السيد بورجيس مونوري ، ان حملة مفاجئة سريعة ، معتمدة على المظليين ، ستحقق عملياً دون معركة .

وهكذا استبعدت في الرابع والعشرين من تشرين الاول صيغة « موسكيتير » الخفيفة من قبل البريطانيين ، اسياد هذه الحملةزعماً منهم ان اسطولا من السفن المسطحة ،قد يتعرض لخطر البوار والتفرق ، عند اول عاصفة بحرية ، حيث لا ميناء يلجأ اليها في قبرص .

وفي الخامس والعشرين من هذا الشهر كان الاسرائيليون يعبئون قواتهم في سرية تامة ، بحيث ان العالم الخارجي لم يعرف بهذا الامر الا بعد ذلك بثلاثة ايام .

وفي الليـــلة السابقه لبداية الهجوم كانت تل ابيب مصابة بالرعدة الشديدة ، ففوق رأسها سيف ديمقليس المسلط ، الذي يهدد مدنها اليهودية بغزو كاسح من قبل القاذفـــات المصرية ايليوشن .

– « نحن في حاجة الى مظلة تقي مدننا المفتوحة من خطر

القذف . فضعوا طائرات للتدخل فوق رؤوسنا » . هذا ما كان يطالب به بن غوريون مدينة باريس .

لقد القيت « احجـــار الزهر » فتقرر التدخل . واصبح الاسرائيليون الذين هاجموا مصر مستقلين، من حلفائنا حكماً ، ووعدتهم باريس بارسال المظلة بعـد الابتداء بالمعركة ، بحيث اجتازت طائرات الميستير البحر المتوسط خلال اربـع ساعات فقط . اما السيد ايدن فقد بقي متردداً حتى ذلك اليوم .

لقد حدثنا احد الوزراء ان السيد دالس كان يتصل بعد ظهر كل يوم بالسيد ايدن تلفونيـــاً فيقول له : اياك وارتكاب اية حماقة ! وفي الساعة الخامسة من مساء كل يوم كان ايدن يتصل بباريس ليتزود بالشجاعة اللازمة .

وثارت ثائرة الحكومة الافرنسية . لقد كانت واثقة من فشل منتظر لهذه الحملة بعد ان رفض الوزير البريطاني الاول تحريك اية سفينة نحو القناة قبل بداية الهجوم الاسرائيلي وبعد هذه الضخامة وذاك الجلال اللذين اتسمت بهما حملة (موسكيتير). فلا يسع احداً ان يتخيل بان الروس والاميركيين المعارضين بعنف لكل رجعة بريطانية فرنسية بالقوة الى الشرق الاوسط ، سيتيحون لعملية الانزال مع ما يحيط بها من جلالة البطء ان تتحقق بعد عشرة ايام من نهاية الانذار . فالعملية في الحقيقة هي سباق مع الزمن . ولقد ثبت لنـــا يومئذ ان الانزال سيتم في العاشر من تشرين الثاني لان الهجوم الاسرائيلي سيبدأ على التأكيد في التاسع والعشرين من تشرين الاول .

وكان السيد بورجيس -موبوري قد ارسل الجنرال شال الى لندن ليقنع المسؤولين بتقديم عملية النزول ثلاثة ايام على الاقل .

واتخذت البحرية الفرنسية استعداداتها اللازمة لبعث الحيوية في الحملة ، فارسلت قوافلها عبر المتوسط والتي ينتظر ان تبلغ بور سعيد في الثالث من تشرين الثاني .

ولقد علمنا ، ان الجنرال بوفر قد اعد عدته في الجزائر لنقل ثلاثة فيالق من المظليين خلال ثلاثة ايام الى قبرص بحيث يتم كل شيء في اول تشرين الثاني ، بالاضافة الى الطائرات والتجهيزات الجوية اللازمة .

ثم قدم الجنرال موعد نقل المظليين الى جزيرة هوميروس ، فحطوا فيها في ٢٧ و٢٨ و٢٩ من تشرين الاول بناء على طلب من الاميرال بارجو .

وقد حدث نزول الطائرات في مختلف مطارات الجزيرة ، تضليلاً للجواسيس ، حتى ان البريطانيين انفسهم قد اصابتهم الدهشة حين وجدوا امامهم ٤٠٠٠ مظلي بعد ان لم يكونوا قد عدّوا من قبل اكثر من ٥٠٠ مظلي .

كان الجنرال بوفر قد التقى زميله الجنرال ستوكويل في في باريس في ٢٦ تشرين الاول وانتزع منه وعداً قاطعاً بتقديم موعد الانزال الى الثامن من تشرين الثاني . ثم قفز الاميرال بارجو في اليوم نفسه الى لندن لينتزع وعداً آخر بتقديم هذا الموعد نفسه الى السادس من الشهر نفسه .

ولكن هذا التاريخ الذي التزمته السلطات العليا – وهو تاريخ الانتخابات الرئاسية في الولايات المتحدة – ظهر غير عملي عند ضباط البحرية ، فقد كانوا في حاجة الى يومين للتحميل وستة ايام لقطع المسافة بين مالطة وبور سعيد .

وتقدم الجنرال شال بحل لبق تطوع الاميرال بارجو باقناع البريطانيين به .

– الا يحق لكم القيام بالتمارين ؟ قالها الاميرال لامراء البحر البريطانيين . فاصدروا امركم في مالطة بالقيام بتمارين التحميل في ٢٩ من تشرين الاول . فاذا حدث ان ارسل الوزير الاول انذاره ، وسارت الامور في مجراها الطبيعي انطلقت القوافل الموجودة في وسط البحر الى اهدافها في بور سعيد بحيث نوفر يومين من الايام الثمانية .

فوافق امراء البحر البريطانيون على هذا الاقتراح .

وقذف الاسرائيليون مظلييهم صباح التاسع والعشرين .

وفي الثلاثين منه وفي تمام الساعة الرابعة والربع من بعدالظهر تقدم السير ايفون كيرك باتريك ، الامين الدائم لوزارة الشؤون الخارجية ، يرافقه السيد بينو ، الى السفير المصري في لندن بالانذار الذي يعبر عن رغبة الحكومتين الفرنسية والبريطانية في احتلال المواقع الاساسية في القناة الا اذا امتنعت حكومتا مصر واسرائيل عن متابعة القتال وسحبتا قواتهما الى مسافة عشرة اميال من ضفتي القنال . وقد قدم البيان نفسه بعد عشر دقائق الى الوزير الاسرائيلي المفوض .

وانتهت مدة الانذار بعد ١٢ ساعة . وحدد السيد ايدن المواقع الاساسية للاحتلال فاذا بها : بور سعيد ، الاسماعيلية ، السويس .

وقبلت إسرائيل الانذار الموجه اليها ووعدت بالعمل بموجبه ، أما عبد الناصر فقد رفضه رفضاً قاطعاً في تمام الواحدة وعشر دقائق من الصباح .

وفي تمام الساعة الرابعة كان عبد الناصر يقف على رأس هيئة الاركان منتظراً ان تهوي السماء فوقه .

واعلنت الصحف العالمية عن قرب حدوث عملية الانزال .. ومرت خمس عشرة ساعة دون ان يحدث شيء جديد اللهم غير ما قالته السيدة ايدن في لندن :

ـ لقد ظننت ان قناة السويس كانت تجتاز غرفة الاستقبال في منزلي .

وانبعثت موجة شديدة من المعارضة لحملة التدخل في لندن . وارسلت واشنطن رسائلها البرقية . اما سفيرها الذي احاطه سلوين لويد علماً بالخبر في الصباح السابق لليلة الهجوم فقد ظن انه لم يفهم او ان مخاطبه قد اخطأ في نقل معلوماته . وانطلق المعارضون والكومنولث والاساقفة ورجال البترول والسفراء يلقون لهيباً وناراً .

ولم يكن في مجلس الوزراء غير ايدن وهيد وزير الدفاع الوطني ممن يؤيد حملة التدخل هذه ، حتى ان لويد نفسه كان متردداً . واما بطلر ولي عهد حزب المحافظين فقد كان على رأس

المعارضة في وسط مجلس الوزراء .

– هل سنبدأ اليوم ؟ قالها السيد موليه .

– نعم ، هذا المساء .

وفي صباح ٣١ تشرين الأول بدأت البحرية الفرنسية عملها التأييدي للاسرائيليين فحمى الطراد كيرسانت مدينة حيفا من مدافع السفينة المصرية ابراهيم الاول . واستغاث الاسرائيليون الذين احيط بهم في مدينة رفح بقنابل الطراد « جورج ليج » فكان ما ارادوه .

وفي تمام السادسة والنصف من مساء الاول من تشرين الثاني بدأت الانفجارات فوق المطارات العسكرية في مصر قريباً من القاهرة وفي ابو صوير ومنطقة الكبريت حول القناة ، بعد ان انذر الاهلون والعسكريون بضرورة إخلاء المدارج الجوية .

وقد رفض قائد القوة الملكية الجوية تعريض طائراته الكانبيرا لمخاطر غارات نهارية وأصر على ان تكون الغارات ليلية ومن علو شاهق ٤٥،٠٠٠ قدم، خوفاً من اخطار طائرات الميغ ،اي من علو يتعذر فيه على المدافعين ان ينالوا من الطائرات المغيرة، وكانت نتائج هذا القذف ضئيلة بطبيعة الحال . فقد اصيبت المدارج ببعض الاضرار ولكن هذا لم يجعلها غير صالحة للعمل على الاطلاق ، كما لم تصب اية طائرة فوق هذه المدارج .

وفي الوقت الذي بدأت فيه حملة التدخل ظهرت آلة الحرب الضخمة التي انطلقت اجزاؤها من مرافىء مرسيليا ولندن

والجزائر وقبرص ومالطة ثم اخذت تتجمع في مكان ما في البحر المتوسط ، شيئاً غير نافع ولا مفيد .

ثم تتابعت الاحداث سريعة عاصفة شديدة، وجاءت التقارير من ملحقنا العسكري في تل ابيب تؤكد ان الاسرائيليين سينجزون احتلالهم للمنطقة الممتدد على طول القناة في ٢ تشرين الثاني .

واستشير الجنرال بوفر في ارسال مظليين فوق الضفة الاسيوية من القناة ، فاجاب :

– انكم شديدو التفاؤل، فالاسرائيليون لن يصلوا الى القناة قبل الخامس من تشرين الثاني . ولذلك فانني لا استطيع ان اخاطر بارسال المظليين ، وهم زهرة الجيش الفرنسي ، الى منطقة ما تزال في متناول نار الدبابات المصرية ، دون حماية مناسبة .

ولكن الجنرال مارتان كان يصر على ارسال المظليين ويؤكد امكانية حمايتهم بطائرات « س . س . ١٠ » مع قوة جوية مهاجمة كافية .

وطائرات « س . س . ١٠ » تسير دون قائد كما يتدلى منها شريط طوله ٤٠٠ متر . وهي صالحة للاعمال الصحراوية . ونقطة الضعف فيها ان شريطها قد يلامس شجرة من الاشجار فتكون نهاية الطائرة .

وقد الحقت قطعة من طائرات « س . س . ١٠ » بفرقة المظليين في قبرص . وأعد الجنرال بروهون والجنرال جيل قائد

المظليين خطة انزال جبرية فوق المطارات بعد ان يصاب الجيش المصري بالتفكك والطيران المصري بالجمود .

اما البريطانيون فقد رفضوا البحث في هـذه الخطط خوفاً من انفضاح تعاونهم مع الاسرائيليين . انهم لم يكونوا ينوون النزول قبل السابع من تشرين الثاني .

في هذه الاثناء . كانت هيئة الامم المتحدة في نيويورك في غليان مستمر، والعالم كله في غضب مقيم على المعتدين .

فاعلن السيد داليس في ١ تشرين الثاني ان فرنسا وبريطانيا واسرائيل قد ارتكبت « خطأ خطيراً » . وباكثرية ٦٢ صوتاً ضد ٢ قررت هيئة الامم المتحدة مناقشة القضية المصرية بعد ان لم تكن قد فكرت من قبل في الاهتمام بمناقشتها .

وكانت باريس تلاحق اميرالبحر بارجو ليلا مصرة على القيام بعمل عاجل . وفي الصباح الباكر استقل بارجو طائرة هليكوبتير متوجها الى المعسكر الكبير «اكس» الذي يقيم خيامه في منطقة خالية من جزيرة قبرص وحطت طائرته بعد ان اثارت بركانا من الغبار . وخرج اليه من خلال سحب الغبـــار جنود وضباط ينتظرون الدخول في المعركة بصبر نافذ .

إن كل شيء في قاعدة «تيمبو» الجوية المخصصة للمظليين يعمل كالساعة لمصلحة اسرائيل ، وفي انتظار الساعة الحاسمة للعمل لمصلحة الفرنسيين في الارض المصرية .

وقد اعجب البريطانيون بتجهيزات الفرنسيين الرائعة حتى انهم طلبوا الى الجنرال جيل، قائد المظليين ، ان يقود مظلييهم .

ودخل بارجو على الجنرال كيتلي يقول له :

ان جهاز عملية الانزال فاسد مضر . فنحن نستعمل حفارة عملاقة لنثقب صفيحة من الورق . نحن في سباق مستمر مع هيئة الامم المتحدة ، فمن الواجب ان نغير خططنا رأساً على عقب . وانني اقترح عليك عملية « الاوميليت » .

وفتح الجنرال الطيب كيتلي عينين كبيرتين أمام هذه « الاوميليت » وهو في ضخامة « كبورتوس » وفي لباقة « كأراميس » .

ان الخطط الثورية عند المظليين تتلاحق باطراد في كل مساء عند تناول الطعام . وهذا شيء طبيعي بالنسبة اليهم .

انهم لا يتحدثون الا عن هجمات عمودية تسمح باحتلال منطقة القناة كلها خلال ١٢ ساعة ، وذلك بالنزول في المطارات الضعيفة التحصين وإنزال قوات فيها بعد ساعات قليلة تحملها طائرات كثيرة .

قد يكون هذا جنوناً ، لو كان هناك طيران عدو . ولكن السماء المصرية خالية ، والطائرات السوفياتية في الارض تتحول الى بقايا معدنية صدئة .

وقد تجعل المدفعية الناجمة ، المضادة للطائرات ، مثل هذا الهجوم شيئاً خطراً جداً ، ولكن البطاريات المصرية تصخب وتعنف وتنقصها المهارة ، والدقة في الرمي .

اما دبابات عبد الناصر فلم يكن الامر بالنسبة اليها : امر دفع الغزو في مناطق الانزال . لانها كانت تحت رحمة صواريخ طائرات الهجوم التي تطير في سماء تسيطر عليها قوات جو الحلفاء سيطرة تامة . والدبابة في مثل هـــذه الحالة تعجز عن مقاومة طائرات الهجوم الصاعق . انها لا تستطيع ان ترفع أنابيب مدافعها الى السماء ، فهي ارنب تحت سلطان صقر منقض من الجو . اما الدبابة في اوروبا فهي اكبر حظاً منها هنا . لانها قادرة على الاختباء في الغابات الكثيرة ، والتخفي بالاغصان والخروج في الليل . اما في الصحراء فهي عارية ، كل ما يسير في الصحراء فريسة باردة للطائرات المطاردة القاذفة .

كانت عملية « اوميليت » التي حملها بارجو الى كيتلي ،وهو قائده المعاون ، جريئة للغاية ولكنها قليلة المخاطر حتى أبعــد الحدود .

وهي لا تستغني عن عمليات الانزال البحرية الضخمة ،فوحدات حملة التدخل بدباباتها موجودة في عرض البحر وكانها تتقدمها بسلسلة من عمليات قذف المظليين المتناسقة في الزمان والمكان في الشمال والجنوب من بور سعيد ، في القنطرة، والاسماعيلية، والسويس: فاذا استولى المظليون على هذه الاهداف ،تسارعت عملية الانزال البحري وحدثت في اليوم الرابع من الشهر ثم تتابع التقدم دون اطلاق قذيفة واحدة . يضاف الى هذا كله ان هذه العمليات الجوية قد وضعت لها الخطة مسبقاً من قبل الجنرال جيل . وقد شملت الصور الجوية أهداف الاحتلال الممكنة كلها على امتداد

القناة .

فدهش الجنرال كيتلي ، واكتسب بارجو الثائر اعجاب شريكه البريطاني . واستدعي كل من أمير البحر دانفورد سليتر والجنرال ستوكويل قائد العمليات البرية والجوية بوفر الى غرفة الابحاث وتبنى كيتلي هذه الخطة الجديدة .

وفي اليوم التالي ٢ تشرين الثاني عرف امير البحر بارجو تلفونياً ان عملية « الاوميليت » قد تركت من قبل القائدين البريين ستوكويل وبوفر بعد ان فرض الاول على مساعده وجهة نظره في معارضة هذه الخطة .

واكدت طائرات الاستطلاع في سماء سيناء ان الجيش المصري يتراجع الى القنطرة وبور سعيد والاسماعيلية ، وهو يتجه بسرعة شديدة بحيث ان القوات الاسرائيلية الضعيفة لا تستطيع الاحاطة به .

وكان دفاع بور سعيد ضعيفاً . ففيها ٣٠٠٠ رجل من الجيش و ١٥٠٠ من رجال الشرطة ، ولم يترك عبدالناصر فيها غير الحامية وسحب فيلقاً من المدفعية وطابوراً من المشاة لاسباب لم تكن مفهومة يومئذ بعد .

فظن البريطانيون ان القوات المنسحبة من بقايا الفرقتين الموجودتين في سيناء ستقوي حامية المدينة والقناة بصورة بارزة ، بحيث ان مجموعات المظليين المرسلة الى الارض ستلقى اخطاراً كثيرة قبل ان تنضم اليها القوات النازلة من البحر .

وفي صباح الثالث من الشهر نفسه ، جاء بوفر الى بارجو يرجوه

معاونته في تنفيذ عملية « الاوميليت » فوعده خيراً . ولكن بوفر كان مساعداً لستوكويل كما كان بارجو مساعداً لكيتلي .

وفي الساعة ١١ ظهراً رجع بارجو الى القائد الاعلى المحبوب يضغط عليه وقال له :

– ستطالب الامم المتحدة بايقاف اطلاق النار. وكاد الاسرائيليون يحيلون الفرقتين المصريتين الى فتات . وهم لا يسعهم الا النزول على رغبـة الامم المتحدة ، بحيث نعجز عن النزول .

وجمع القادة الاعلون وقادة العمليات الاخرى مرة اخرى .

قال ماريشال الجو البريطـاني : هناك صعوبة مادية في انزال المظليين بأعداد ضخمة ثم في انجادهم بالطائرات ، لان الطائرات تنقصنا ، فالفرنسيون يتصرفون بثلاثين طائرة من طراز « شمال – ٢٥٠١ » وهي تستطيع ان تنقل الف رجل باسلحتهم الخفيفـــة كل تسع ساعات ، كما ان هناك طائرات هيليكوبتر محمولة فوق حاملات الطائرات ، وهي لا تستطيع ان تحمل من جنود البحرية الا عشرات قليلة لمسافات قصيرة .

اذن ، فعلينا ان ننتظر طائرات النقل البريطانية التي لا تصل قبل ظهر اليوم الرابع من الشهر .

وهنا برز الموقف القانوني المصطنع الذي تبناه البريطانيون في البداية ، وعملوا به على اهمال كل إعداد ظاهر قبل تحقق الهجوم الاسرائيلي الذي يبرر تدخلهم ، فشلّ العسكريين وهدد بقتل العملية الضخمة وهي جنين . والظاهر ان البريطانيين لم يكونوا

يدركون حتى هاتيك الساعات خطورة السباق مع الزمن .

فباريس تلاحق بارجو امير البحر .

ولكن بارجو يصطدم بجمود الجهـــاز الذي وضعتـه لندن .

لنترك عملية « الاوميليت » وهي التي يستحيل تنفيذها في مثل هذه الاوضاع . قالها بارجو . ولكن لنصنع شيئاً آخر . لنقدم عملية الانزال فنجعلها في اليوم الخامس، وللنتزل مظليينا في الليلة السابقة لموعد الانزال فوق بور سعيد ، بحيث يحتلون ويسمحون للدبابات بالتوجه تواً الى الجنوب .

ـ هذا مستحيل ! قاله امير البحر سليتر مقاطعاً ، فان كاسحات الالغام لن تكون في بور سعيد قبل صباح اليوم السادس من الشهر .

والواقع اننا قد عرفنا بان عبد الناصر قد استولى على ٤٢ لغمـاً بحرياً من مستودعات البريطانيين في القناة وانه يستعد لوضعها امام بور سعيد .

قال بارجو : من الممكن ان اغير اتجاه الدارعة «جان بار» وحامـلة القوارب « لافودر » وسفننا البرمائية . فاوجهها الى بور سعيد مباشرة ، بحيث تبدأ البحرية الفرنسية عملياتها قبل البحرية الملكية .

فاعترض سليتر بقوة رافضاً قيام البحرية الفرنسية بهذا الدور منفردة عن البحرية الملكية .

وقال بخشونة ظاهرة : ان البحرية الملكية لا تستطيع

الاستغناء عن كاسحاتها .

ولا يسع الاسطول المختلط ان يغامر دون حماية ضد الغواصات البحرية ، كما ان مطارداتنا ضد الغواصات لا تستطيع ان تكون في بور سعيد قبل اليوم السادس من الشهر .

والواقع ان ما بعث على هذا الخوف ، هو ما قيل لنا من ان غواصتين روسيتين او بولونيتين – والامر سواء – متجهتان الى المتوسط ، وانهما قد رئيتا أمام الشواطىء الفرنسية . واجتازتا مضيق جبل طارق في الثاني من تشرين الثاني ، كما ان عبد الناصر قد افتخر منذ اسابيع باستلامه غواصات روسية ، وبما ان ضباطه وبحريته عاجزون عن قيادة غواصة ، فمن الضروري ان يرافق هذه الهدية الروسية متطوعون من السلافيين .

لهذا كان هناك ما يبرر قلق امير البحر البريطاني .

وفي اليوم التالي ، عرفنا ان الغواصتين قد غيرتا اتجاههما فجأة . وهي ظاهرة جديدة تدل على حذر الروس الشديد الذي لاحظناه خلال اسبوع المأساة كله .

وفي الساعة الثالثة من بعد ظهر ٣ تشرين الثاني اجتمع القادة البريطانيون والفرنسيون .

قال بارجو : أقترح عليكم عملية « تلسكوب » . فلنحتفظ بخططنا ، إذ لا سبيل الى تغييرها . ولكن لنقدم لعملية الانزال المقررة لليوم السادس بقذف مظليين في اليوم الخامس ينظفون لنا منطقة الأنزال البحري ، كما تحطم الطائرات البريطانية الفرنسية بطاريات المدفعية في الشاطيء ، مما يحول دون قذف

السكان بقنابل السفن الكبيرة المميتة .

ولكن ستوكويل بقي مصراً على رأيه في القيــام بهجوم مجابه . فناضل بوفر طيلة بعد الظهر حتى اقنعه بميزات قذف المظليين المسبق فاستسلم الجنرال البريطاني في المساء .

ووافق على ان المظليين سيجسون لنا نبض المقاومة في بور سعيد على الاقل .

ــ ان المظليين سيستولون على المدينة ! قالها بارجو مؤكداً بثقة تامة .

واعلن الجنرال كيتلي قائلاً : إن وزير دفاعنا سيصل هذه الليلة الينا . والواقع ان وزير خارجيتنا بينو يرافقه الجــنرال شال قد توجه الى لنــدن لأقناع المسؤولين فيها بجدوى عملية « الأوميليت » التي هي في الواقع تعديل لخطة زرع المظليين على امتداد الضفة الاسيوية للقناة .

وكان امير البحر بارجو ، قد ارسل قائد أركانه ، الجنرال جازان الى المعسكر « اكس » ، ليخرج أفراد فيلق من المظليين من أسرتهم .

وفي تمام العاشرة من المساء . وصل جازان إلى القيادة العامة للمظليين . ثم دق النفير . واستعد ٦٠٠ رجل في الساعة السابعة من صباح اليوم التالي فوقفوا امام ابواب طائراتهم في مطار تيمبو .

ــ إنكم سعداء ! هذا ما كان ينادي به الباقون من المظليين زملاءهم الذين يغادرونهم تحت احمالهم الثقيلة .

ــ الظاهر أنكم ستستقبلون استقبال الملوك في مصر ،

قالها بعضهم .

وقال آخر : أخبر فاروق بهذا الامر فهو يهمه !

في الساعة الرابعة من الصباح الباكر ، كان موكب كبير من القبعات ذات الاشرطة المختلفة يمشي ، في ظلمة الليل ، فوق ارض (اكروتيري) . انها ليلة من ليالي الشرق ، لمعت فيها نجوم ضخمة فصاغت فوق ارض المطار قبة ساحرة . والحرس من البريطانيين يغلون شايهم ويضعون فوق الصحون قطعاً من الحلوى بهذه السماحة المحببة التي تدخل الى قلوب الفرنسيين .

وانطلق صدى كصدى تمزيق الحرير . لقد كانت احدى طائرات الكانبيرا تحط في ارض المطار ، خرج منها السيد هيد . وقد غادر بها لندن عند منتصف الليل بعد جلسة طويلة مع الجنرال شال . وكان يرافقه الجنرال تمبلر رئيس هيئة الاركان الامبراطورية . في هذه المرة كان مجلس الوزراء قد ادرك الحقيقة فلم يكن له ان ينتظر اي تسامح من قبل واشنطن ، لان السيد ايزنهاور قد صرح بعد أن فاجأته حملة التدخل وهو في غمرة معركته الانتخابية ، واعتبرها ناقضة لسياسته المحدودة إلى السلام ، قائلاً :

« اننا لن ننجرّ الى حرب في الشرق الاوسط . وسنعمل كل شيء للحيلولة دون تطور النزاع فيه . »

وكان السيد دالس قد دخل الى المستشفى لانتزاع سرطان من احشائه . ولكن غضب انصار الرئيس آيزنهاور والادارة الاميركية ، ليلة الانتخابات ، قد بلغ القمة .

لم تكن واشنطن لينة مع البريطانيين والفرنسيين . لقد كان غضبها شديداً . لقد انتهكوا حرمة السلام ، وافسدوا التوازن العالمي ، ضد مصلحة الولايات المتحـــدة ، مستعملين لتحقيق غاياتهم ، الاسلحة الاميركية والمال الاميركي .

امير البحر بارجو ، يعرض خطة « التلسكوب » .

قال : ان إنزال المظليين سيوفر على عمليات النزول البحرية صدمات هجوم أمامي . وفي وسعنا الاستغناء عن القذف البحري بالقنابل ذي النتائج المدمرة . كما سنوفر اكبر قدر ممكن من الخسائر البشرية .

فابتسم السيد هيد أمام الفرنسي ابتسامة عرفان بالجميل :

– إنني موافق على الخطة البريطانية التي تقول بحماية المدنيين حتى أبعد حد ممكن .

أما في باريس فان بورجيس مونوري يصر دائماً على تنفيذ عملية « الاوميليت » ، والاستيلاء على القناة ثم التوجه بعيداً الى الجنوب .

أما أمير البحر فيجيب : ان الشروط الجوية لا تلائم القيام بهذه العملية . واتصل السيد أبل توماس بتل ابيب تلفونياً : فاجابته : الجو حسن جداً « ولكن هـــذا لا يعني أنه لا رياح فوق القناة » .

وفي مساء الرابـع من تشرين الثاني : كان الوزير يبرق الى « ايبسكوبي » .

– « نفذوا عملية الأوميليت » إلا في حالة الاستحالة . انتم

وما ترون »

ومنذ العاشرة ليلاً كان الجنرال ستوكويل يذيع على قوات المظليين البريطانية والفرنسية خطة « التلسكوب » . وفي الدقيقة الاخيرة ، وبينما كان الجنرال جيل يستعد لانزال المظليين فوق بور فؤاد ، منطقة الانزال الفرنسية ، تلقى أمراً بانزالهم اولاً جنوبي بور سعيد قريباً من الجسر المتحرك ليفتح طريق السويس عملاً بخطة بارجو الساحقة ، الذي كان يقول دائما : انه اذا انفجر الجسر وتهدم فاننا سنكون كالجرذان في جزيرتنا . ولكن المشروع الضخم الذي يحلم الاميرال بارجو بتنفيذه قد تحول في تعليمات القائد البري الى انزال متناثر في مجموعات صغيرة وتدخل الجنرال جازان للحصول على نجدة . كما تلقى الجنرال جيل قائد مظليينا امراً بقذف ٤٥٠ رجــــلاً جنوبي بور سعيد بينما كان البريطانيون في الشمال يقذفون ٧٠٠ رجل ليستولوا على منطقة الجميل على امتداد الشاطيء .

وفي الخامس من تشرين الثاني زاد رجال جيل فاصبحوا ٥٥٠ بعد ان احتلوا الجسر الذي يفتح الطريق الى السويس .

وقد سأل الجنرال بوفر زميله جيل : هل جندت متطوعين من المصريين حتى زاد رجالك ؟

فاجابه جيل قائلاً : لا ، ولكنني أضفت على مسؤوليتي الخاصة مئة شاب . فليست هي المرة الاولى التي اخوض فيها غمار حرب !

يضاف الى هذا ، ان الجنرال بوفر ، قد حصل على الاذن

بمضاعفة عدد الرجال بعد ظهر اليوم نفسه وذلك بان ينزل عدداً مماثلاً لهم فوق بور فؤاد ، المدينة التوأم لبور سعيد والمقابلة لها في صفة القناة الاخرى .

وفجأة قفز ستوكويل فوق مقعده ، فقد لاحظ ان الفرنسيين الذين حددت لهم الخطة الضفة الاسيوية مكاناً لنزولهم سيكونون فوق الضفتين .

– ولكن كيف نعمـــل لوضع خط بين الفرنسيين والبريطانيين ؟

– خذ قلماً ازرق يا سيدي الجنرال .

واخيراً حمل خط جميل بالقلم الازرق الى الجنرال المنهجي شيئاً من الطمأنينة .

لقد ربحنا ٢٤ ساعة في وقت كنا ننتظر فيه ان تقيد ايدينا في كل دقيقة . وفي العاشرة من المساء ، وصلت برقية من لندن الى القيادة العامة يطلب فيهـا السيد ايدن ارجاء العمليات ٢٤ ساعة ، فخسرنا ما ربحناه . والحقيقة ان هـذا التأخير لم يكن تأخيراً في الوقت بل هو تراجع عن الحملة كلها .

– ماذا تقول ؟ قالها في الهاتف الجنرال كيتلي متوجهاً الى بارجو الفرنسي .

– فكان جواب امير البحر في ثلاث كلمات وجهها كيتلي الى رئاسة الوزراء البريطانية : القيادة الفرنسية نائمة !

وفي الواقع ان عملية مسرحية قد حدثت في هيئه الامم المتحدة ، فقد اعلنت احدى وكالات الانباء عند المساء ان السيد

ابا ايبان قد وافق على وقف اطلاق النـــار شرط ان توافق مصر عليه .

فكلفت هيئـــة الامم سكرتيرها العام السيد هامرشولد بتكوين قوة دولية لتقوية الهدنة .

واعلنت الحكومة البريطـانية ، المرتبطة بدور الشرطي المصطنع ، انه لم يعد في وسعها متابعة التدخل بعد ان لم يعـد هناك فريقان يتقاتلان .

فتبادل بن غوريون وباريس سلسلة من الاتصالات التلفونية ، ذات طابع مأساوي .

ــ ماذا قال السيد ايبان على التحديد ؟

ــ اجاب بن غوريون ان ايبان قد لاحظ بان كل مقاومـة منظمة في سيناء قد توقفت . وهذا يعني التوقف عن اطلاق النار . ولكنه لم يقبل امر التوقف من الناحية القانونية .

وقد اوعزت تل ابيب الى ممثلها في الامم المتحدة بتوجيه سلسلة من الاسئلة الى السيد هامرشولد حول ايقاف اطلاق النار .

ــ هل هناك قبول دون قيد ولا شرط من قبل مصر ؟ ان كثيراً من عناصر الجيش المصري ما تزال تتابع اطلاق النـار في سيناء .

ــ هل تعتبر مصر نفسها في حالة حرب دائمة مع اسرائيل ؟

ــ هل يتابع الفدائيون اعمالهم العدوانية ؟

في هذه الاثنـاء ، وبينما كانت عملية التحقيق الاسرائيلي مع

هامرشولد تتلاحق وجد البريطانيون فرصة لمتابعة التدخل :
وفي الساعة الثانية صباحاً ، الغى الوزير الاول امره السابق .
فانتزع منه الامر بالانزال مرة اخرى .
وانطلقت اصوات المحركات فوق المطارات . واستقل نصف الفيلق الثاني للمظليين طائراته مع تجهيزاته الكاملة تحت قيادة الكولونيل شاتور جوبار . وصعد ٧٠٠ رجل من مظليي الفرقة السادسة عشرة الى طائراتهم على مشهد من الجنرال بطلر . ثم انطلقت الطائرات فوق بور سعيد في تمام الاربعين دقيقة بعد السابعة صباحاً فبعثت سيلاً كثيفاً من قنابل المدفعية .
وبدأت عملية الانزال البحري .

اسرار سيناء

كانت معركة سيناء ، انتصاراً لخطة مضادة ، ذات مهارة فائقة ، اشتركت في تنفيذها ، بجرأة جهنمية ، وحدات نظامية لها مرعة المغاوير ، يسندها رجال من الاحتياط يدرجون فوق سيارات سياحية وشاحنات بائعي الجبن ، ولكنهم يتنازعون اكليل العدوان .

لقد استغل الجنرال موشي دايان تسرع عبد النـــاصر بمـــا جمعه من قواعد وقوى كثيرة قريباً من الجبهة الاسرائيلية ، تاركاً وراءه صحراء واسعة ، فهاجمه من الخلف. ولكنه حذر من ان يقطع على الجيش المصري طريقيه الرئيسيتين؛ لانه لم يكن يملك من القوة ما يسمح له بمقابلة الجيش المصري ، الذي جهزه الروس ، في معركة نظامية .

ولكن طوابيره الطائرة انتشرت كأسنان المنشار على امتداد هاتين الطريقـين ، تفاجيء القوى المصرية ، او تبعث في بعض

اجزائها الفوضى او تحيط بقوافلها التي تحمل نجدات الى الجيش الكبير المتراجع .

وفي اليوم الرابع كان مشط الجنرال الأعور قد اجتاز أرضاً من سيناء لا يقل عمقها عن ١٤٠ كيلو متراً.

كان المستشارون الالمان الذين التحقوا بخدمة عبد الناصر وقادوا العمليات العسكرية في سيناء قد بنوا تحصينات دفاعية فقط حتى عام ١٩٥٥ .

وهم لم يبنوها في المواقع التي كانوا يريدون بناءها فيها . فقد كانت خططهم تقضي ببناء خط خفيف من المقاومة في جبهة النقب ووراء منحنى غزة . ثم يتركون فراغاً عميقاً لا يقل عن ١٥٠ كيلو متراً ، يقيمون وراءه مراكز منيعة تحت ظل منطقة جبلية على بعد ٥٠ كيلو متراً من القناة ، من مستودعات للدبابات ومطارات للتحصينات الرئيسية .

وبهذه الطريقة يجعلون الغزاة امام مساحات صحراوية شاسعة تضعهم امام خطر شديد بعد ان يكونوا قد ابتعدوا عن قواعدهم الاساسية . وطبيعي ان هؤلاء الغزاة هم الاسرائيليون.

ولكن عبد الناصر لم يسمح لهم بان يفعلوا ما يريدون ، لان ما كان يشغله ليس فقط الدفاع عن القناة ومنطقة الدلتا ، بل القيام بهجمات متتابعة ساحقة على الارض الاسرائيلية بواسطة الفدائيين المنتقمين الذين كانوا يفجرون الطرق والسيارات ويمثلون حرب الثأر . فأرغم خبراء الحملة الافريقية الالمانية على ان يبنوا له تحصينات منيعة قريباً من الحدود .

ووقع الاختيار على رفح القائمة عند الشاطىء خلف غزة . وفي الطريق الرئيسية لسيناء، القاهرة - الاسماعيلية - بير السبع - القدس قامت قواعد القلعة المنيعة لابو عجيلة، عند سفوح هضاب ام غاطف حيث يمتد البصر بعيداً في الصحراء .

وفي نهاية ١٩٥٥ استبدل الخبراء السوفيات بالخبراء الالمان . فكانت لاولئك خطة اخرى غير خطة هؤلاء : لقد ارادوا ان يجعلوا من سيناء نقطة انطلاق لهجوم على اسرائيل ، ابتداء من نتوء منطقة النقب الذي يصل مابين الارض المصرية وجيوش مصر من ناحية ثم جيوش الاردن وسوريا من ناحية اخرى ، بحيث يحولونها الى قاعدة للهجوم المركز على الحدود الاسرائيلية تحت قيادة مصرية تنضم اليها قوات عربية موحدة .

فبنيت طرق استراتيجية جديدة . وكان احد المنجزات الاولى هذا الشريط الاسود الواضح في ارض الصحراء والممتد على امتداد الشاطىء بين القنطرة وغزة عبر العريش ورفح . ثم عدد من الطرق الاخرى الصالحة للنفاذ والتغلغل منتهية كلها عند مشارف الحدود .

اما في بير كفكفا (Bir - Gifgafa) فوق ارض المطار البريطاني القديم فقد بدىء ببنـــاء مدارج تستطيع استقبال قاذفات ومطاردات نافورية وكانت تبنى أيضاً قواعد ضخمة لاعـــداد الهجوم المنتظر ، وغرف باردة تتسع لمؤونة كافية لستة أشهر . كما جمعت مئات من المدافع والدبابات وسيارات المدافع الرشاشة وشاحنات مولوتوفا في منطقة العريش . وخبئت في

باطن الارض مخزونات ضخمة من الوقود عند خط الانطلاق . وقد اعدت مستودعات رفح والعريش بحيث تستطيع تسليح الفرق الاردنية . لقد وضعت فيها مئات الاغطية ومئات من اطنان الذخيرة التشيكية ولكن هـذا المنطلق الهجومي الكبير يحتوي على نقطة ضعف لم تغفل عنها القيادة الاسرائيلية . لقـد كان من الممكن توجيهه الى الوجهة المضادة ، بحيث تنفتح الصحراء كلها أمام المغيرين الذين يتركون وراءهم الجيش المصري المنظم ويقفزون في الابعاد الواسعة ليقوموا بمناوراتهم العسكرية .

كان الاسرائيليون مستعدين .

ولكنهم في الدقيقة الاخيرة شعروا بالحاجة الملحة الى مظلة من الطائرات القادرة على رد عادية غارات جوية كاسحة من قبل المصريين فوق مدنهم المكشوفة .

وكان مشروع الحلفاء في تحطيم الطيران المصري كافياً لحمل الطمأنينة الى قلوب الاسرائيليين ، لولا انهم كانوا سيتحملون مسؤولية المعركة مستقلين خلال ٤٨ ساعة ضد اقوى طيران في الشرق الاوسط .

ان طائرات - المستانج - والاوراغان - والميتيور - التي يملكونها عاجزة عن مقابلة النفاثات السوفياتية . فمنحتهم الحكومة الفرنسية خمسين من طائرات الميستير - ٤ - ، وهي مطاردات متفوقة على طائرات الميغ ١٥ ، سريعة سرعة الصوت ومزودة بستة مدافع . اما الكنديون فلم يفوا بعهودهم التي تقدموا بهـا في تسليم الطائرات المطاردة القاذفة ف ٨٦ اليهم .

يضاف الى هذا ان الطيارين الاسرائيليين الذين كانوا يتدربون خلال الصيف على قيادة طائرات الميستير - ٤ - والتي وضعت تحت تصرفهم لم يكونوا قد أنهوا بعـــد تمارينهم . لقد كانت المدرسة الجوية مشرفة على نهاية دروس القتال ، وكان عدد من الطيارين عاجزاً عن قيادة الطائرات بصورة عملية قبل اليوم الرابع الذي كانت تنتهي فيه هذه الحرب .

وعلى هذا ، فان معركة سيناء ستكون اساسياً معركة طيران جوي . ان سيد السماء في قطاعات شاسعة لا ملجأ فيهـا للطوابير والدبابات هو سيد الارض ، والسيارات المدرعــة والشاحنات تلتصق بالارض على جانبي الطريق فوق القسم الاكبر من سيناء . فاذا ابتعدت عن الطريق ساخت في الرمال الناعمة وتتحول الدبابة الى فريسة باردة مكشوفة للطائرات المزودة بالصواريخ والمدافع .

كان الاسرائيليون يستهدفون انزال المظليين بعيـــداً في الصحراء وراء الخطوط المصرية لاشاعـة الفوضى في مواصلات المصريين وتحطيم معنوياتهم .

ولكن وسائلهم العسكرية هزيلة جداً ، فلا يسعهم ان يناوروا في شبه الجزيرة كلها ، دون الاستفادة ، عند الحاجة ، من تموين جوي التمسوه عند باريس ، قبيل بداية عملياتهم ، وهم يعلمون انها لن ترفض لهم ما يطلبونه ، وهم من ناحية اخرى ، لم يكونوا قادرين على انزال مظلييهم فوق الطريق المحورية الكبرى حيث يتعرضون سريعاً لضرب شديد من قبل قوات كبيرة

جوية ومدرعة . لقد كان عليهم ان يختاروا منطقـــة جبلية لا تصلها الدبابات ، ثم تصلح في الوقت نفسه لانزال جوي .

ان احتلال سيناء كلهـا من قبل الجنرال موشى دايان ، بالنسبة الى الفرنسيين ، هو ذو اهمية خاصة ، لان حملة التدخل لن تضطر الى السير على امتداد القناة بين جيشين مصريين ، جيش سيناء وجيش الدلتا ، ولن يكون عليها الا ان تقابل القوات الآتية من القاهرة .

وهكذا استجيب لنداء اسرائيل ، فارسلت ثلاث مجموعات من الطائرات المطاردة والمطاردة القاذفة الى أرض اسرائيل للدفاع عن مدنها المكشوفة . كما وضعت تحت تصرف الاسرائيليين اربع طائرات حديثة جداً من طراز (شمال – ٢٥٠١) لتنمية امكاناتهم في قذف المظليين والتي لم يكن لهم منها من قبل غير طائرات داكوتا القديمة .

امـا فرق المظليين والطوابير العاملة دون تموين فقد كانت تتلقى مؤونتها الهجومية من قاعدة قبرص .

وسيكون في وسع الطائرات المطاردة والمطاردة القـاذفة الفرنسية ان تتدخل في المعركة ضد الطوابير المصرية بعد تأمين الدفاع عن المدن المكشوفة .

وجرت التعبئة الاسرائيلية في سرية مطلقة منذ ٢٥ تشرين الاول ، فدعي المهندس باتصـــال تلفوني ، والمزارع ببرقية ، واخرج الحلاق من سريره بنقر على باب بيته .

كان يقول احدهم لزوجته النائمة : ان رقيبي في الجيش قد اتى

يأخذني .

لقد كان لكل جندي من جنود الاحتيـــاط سلاحه وثوبه العسكري في خزانة بيته .

اما الطلاب فقد وجدوا امام أبواب مدارسهم شاحنات تقلهم الى مراكز التعبئة ، كما اوقف سائقو السيارات عند منعطفات الشوارع ، فكان يعطى لكل منهم بطاقة تعين له مكان التجمع . وأما الفلاحون الذين كانوا يأتون الى السوق مع بغالهم فقد تلقوا بطاقة من نوع آخر ، لا يلبثون بعد استلامها ان ينطلقوا الى امكنة التجمع التي عينت لهم .

وفي يوم الجمعة ،وقبل بداية الهجوم بثلاثة أيام كان ١٥٠،٠٠٠ شاب وشابة تحت السلاح بأثوابهم الاميركية الكاكية .

قيل لهم : المهمة غير خطيرة . فلن يطول امرها ! كما ا. لم يدع كل رجال الاحتياط بسبب عدم الحاجة اليهم .

وتشكلت الطوابير في المعسكرات، فسائق السيارة الصغيرة مع سيارته، وقائد الشاحنة مع شاحنته، وكذلك شأن الكوائين وبائعي الحلويات فقد انطلقوا بسياراتهم العاملة في خدمتهم . لقد صودر كل شيء حتى سيارات التنظيف . واخفيت السيارات بسرعة تحت طبقة من الوحول والتراب المبلل . وكذلك صنع بالدبابات المصرية التي دهنت مرة اخرى بعد الاستيلاء عليها . وخضع الاحتياطيون لتمرينات كثيفة على الاسلحة، وعلى دبابات ا ـ م ـ اكس ، وسيارات الجيب المسلحة بمدافع ٧٥ ومدافع ١٠٦ الثابتة الانابيب . ثم رفض اليهود اليمنيون استعمال الاسلحة

لان اليوم سبت . فجيء لهم بالرباني ليقرأ لهم في التوراة ان المكابيين كانوا يقاتلون يوم السبت أيضاً .

كان يجب ان يتقدم الصفوف ٣٢٠٠٠ رجـــل من الجيش الاسرائيلي . ومنذ الاستيلاء على القناة سحب عبد الناصر قسماً من قواته التي لم تكن تقل عن ٨٠،٠٠٠ رجل الى الدلتا .

قال الجنرال موشي دايان : ان عمليتنا اكثر من غارة واقل من حرب .

والحقيقة انه لم يكن يعرف بنية العـدوان الاسرائيلي من الضباط الاسرائيليين غير ثلاثة فقط . أما مكتب عمليات الجنرال دايان فلم يعرف بحقيقة ما سيحدث الا قبل بداية العمليات بثلاثة أيام . ان للسرية والارتجال في مثل هذه الغارات المفاجئة آثاراً مدهشة ، والحماسة في الحرب لا تكفي لتحقيق كل غاية .

لقد استعان الاسرائيليون بنوع مرتجل من التجهيز ، فكانت سيارات الفنادق والجزارين والسياح تنطلق عبر المناطق الشاسعة الصامتة مرافقة للدبابات المتجهة في طرق البغـــال ومعالم طرق الجمال حيث تاه اليهود تحت قيادة موسى .

وكانت الطوابير تتحرك في مجموعات ، والجرحى ينتظرون طويلاً ليحملوا بعد ذلك الى طاولة العمليات الجراحية . أمـــا المراسلات فقد استعملت فقط في حدود الوحدات الصغيرة . وقد تقذف فوق بعضها بعضاً .

كان الجنرال دايان هو نفسه رئيس هيئة أركان حربه ، وكان يقوم بمهمة ضباط الاتصال مع طوابيره الاربعة ، فهو في كل مكان

بسيارة القيادة حيث تدعو الحاجة .

كانت فرق المشاة تسير بحماية نار المستانغ والميتيور والاوراغان ويطلق أفرادها النار على مسافة ٢٠٠ متر امامهم .

أما مدرسة موشي دايان العسكرية فهي حرب الانصار . لقد كان في العام الثاني عشر من عمره حين استعمل البندقية لاول مرة . ثم فاجأه البريطانيون وقضي عليه بالسجن ٥ سنين . وفي سنة ١٩٤١ هرب من السجن والتحق بالبريطانيين (او كما يصحح : بالاستراليين) على الحدود السورية .

اصيب بجرح خطير ففقد احدى عينيه ولكنه اكتسب هيئة القرصان .

وفي ٢٩ تشرين الاول وصلت ثلاث مجموعات من طائرات الميستير - ٤ - المطاردة والمطاردة القاذفة الى قاعدة اللد منطلقة من قواعدها الفرنسية في ديجون وسان ديزيه . وقد اجتازت المتوسط بقفزتين خلال اربع ساعات . قفزت من باري في ايطاليا الى قبرص ومن قبرص الى اسرائيل . فاستقبلت استقبال المنقذين . وفي مساء يوم وصولها بدأ الهجوم .

ولم تكن طائرات الميستير - ٤ - في حاجة الى قاعدة تحملها معها، فقد لقيت في اسرائيل الصيانة المطلوبة والاختصاصيين الفرنسيين الملحقين بطائرات الميستير الاسرائيلية التي سلمت الى دولة اسرائيل منذ أسابيع .

ولم يكن البريطانيون على علم بهذه النجدة الكبيرة . لكن الجنرال بروهون في كل حال قد نبه قائد الطيران الملكي في

في قبرص، لا سيا وهو مساعد له، واخبره ان ستين طائرة فرنسية ستحط فوق مدارج اكروتيري في قبرص .

ان ما كان يصنعه الفرنسيون مع الاسرائيليين لم يكن يعني البريطانيين الذين يرفضون معرفته . فمرت المطاردات الستون وكأنها رسائل بريدية .

كانت المطاردات والمطاردات القاذفة تقوم بمهات استطلاع وحماية خلال اليومين الاولين. وقد امرت هذه الطائرات بالعمل من الشمال الى الجنوب ومن الجنوب الى الشمال فقط بسبب ضيق بعض الاراضي الاسرائيلية التي لا تحتمل اكثر من طيران دقائق قليلة . وللحيلولة دون الدخول الى الاجواء السورية والاردنية .

لقد كانت الحماية نفسية اكثر منها مادية . فلم تحتج هـــذه الطائرات الى اعتراض غارة كثيفة لنفاثات مصر ، لان وجودها كاف للحيلولة دون القيام بمثل هذه الغارة .

اما هدف الاسرائيليين الاول، فهو اشاعة الفوضى في صفوف المصريين . فصوبوا مسدساً نحو القناة على بعد ٢٠٠ كيلو متر من النقب .

وفي ليلة ٢٩ تشرين الاول القي فوج من المظليين على بعد ٤٠ كيلومتراً من السويس أمام ممر متلا . فوصل الى أرض صخرية معزولة دون ضجة .

في هذه الوحدة القاحلة ، كان المظليون قادرين على تنظيم أنفسهم دون خوف كبير من سيارات المصريين المدرعة . فالممر لا يشرف الا على طريق فرعية واحدة. ومن هناك كان في وسع

الهجوم الاسرائيلي ان يبلغ سريعاً في الشمال الطريق المحورية الكبيرة: اسماعيلية – بير السبع .

وفي الليـــلة نفسها تلقى المظليون الاسرائيليون مؤونتهم وأسلحتهم الثقيلة من قبرس : خزانات مياه ووقود وسيارات جيب مزودة بمدافع ثابتة مضادة للدبابات القيت فوق اطواف مخففة للصدمـــات ، وذخيرة . وقد قامت سرية تموين المظليين الفرنسية في مطار تيمبو باول مهمة ليلية لمصلحة الاسرائيليين .

ومن ثم اخذت هذه السرية تنطلق في الصحراء في كل ليلة توزع المـــاء والوقود وسيارات الجيب التي كانت تحتاج اليها الطوابير كي تبلغ القناة .

لقد كان الهجوم الاسرائيلي مفاجأة تامة لعبد الناصر . وفي الليلة السابقة كانت اصوات عربية تقول : « انه يوم الفزع بالنسبة الى اسرائيل » والتحقت جيوش سوريا والاردن بالقيادة المصرية ، ورجـــع عبد الحكيم عامر قائد أركان البلدان العربية الثلاث مطمئناً الى القاهرة .

لقد احتاجت هيئـة الاركان المصرية الى ثلاثين ساعة لكي ترسل فيلقاً من المشاة الى ممر متلا وتهاجم المظليين الاسرائيليين بالطائرات .

وفي مساء ٢٩ تشرين الاول اخترق طابور آلي اسرائيـــلي مركز الكونتيلا على الجبهة خلال عشرين دقيقة فقط عند اسفل نتوء النقب . ثم انطلق من خلال معالم القوافل نحو الغرب في اتجاه المظليين . ولكنه لم يلبث حتى ساخ في محيط من الرمال المائعة ،

فكانت العجلات ذات السلاسل تدور في الفراغ مستهلكة وقودها . وكانت المدافع تتأرجح فوق الفوهات البركانية حيث يغوص الرجال حتى بطونهم . وفي الفجر ارغمت الفرقة على ترك نصف دباباتها وثلث مدافعها في هذا البحر الجاف .

ثم انطلق من ميناء ايلات طابور آخر نحو خليج العقبة ليلتقي الطابور الاول أمام سلسلة تاماد عند السادسة من صباح اليوم التالي . فكانت هناك حقول من الالغام وقذف بالقنابل من مدافع تشيكية ثابتة من قبل سرية من المشاة المصريين قائمة في اعلى المنحدرات الكلسية ، فتوقف السير . ولكن الدبابات والمدافع الاسرائيلية قد قضت على الخندق الاول وكبدت العدو ٦٠ قتيلاً . الا انها كانت من البطء بحيث وصلت أربع طائرات مصرية من طراز « فامباير » آتية من القناة . فضربت قوافلها بالمدافع الرشاشة في محاولات ثلاث وكبدتها خسائر كبيرة .

وفي مساء ٣١ تشرين الاول التقى الطابوران بمجموعة المظليين أمام ممر متلا بعد القضاء على مركز نخل ، في وسط سيناء ، الذي لم يقاوم مقاومة تذكر .

كان المظليون قد ضربوا بالمدافع الرشاشة من قبل طائرات فامباير أيضاً . وهي طائرات نفاثة ، قديمة نسبياً ، يجد الطيارون المصريون في قيادتها سهولة اكبر من تلك التي يجدونها في قيادة طائرات الميغ السوفياتية ، ثم رجعت اربع طائرات فامباير اخرى الى الهجوم . ولكن طائرتين من الميستير الفرنسية كانتا

في السماء فاسقطتا ثلاثاً منها . ثم عقبتها ست طائرات من الميغ المصرية واشتركت في معركة عنيفة جداً ضد النفاثات الاسرائيلية . ولم تلبث طائرات الميتيور حتى اقبلت فقذفت برشاشاتها الطابور المتقدم في فجوات الجبال .

لقد وقع الطابور الاسرائيلي في كمين هيأه الفيلق المصري الذي كان قد اتخذ مواقعه بعد ان وصل الى الممر في كهوف على جانبي الطريق . واكتسحت المطاردات المصرية هـــذه القافلة المجمدة . فحاول الاسرائيليون ان يضللوا خصومهم المتمركزين وراء الصخور بالتسلق الى قمة الفجوات . ولكن الطائرات جاءت تحصدهم حصداً . وكانت الطائرات الاسرائيلية عاجزة عن مد يد العون الى القوات البرية . فقد كانت الصخور التي يقاتلون حولها غامضة شديدة الانبهام .

فخلع الجنود قمصانهم فوق الاحجار ليصنعوا بها خطا تستطيع أن تطلق طائراتهم نارها على مسافة ١٥٠ متراً منه . ولكن هذه المحاولة أيضاً قد باءت بالفشل .

وجاء المساء لحسن حظ الاسرائيليين واضطرت الطائرات المصرية للرجوع الى قواعدها .

وانتظر الاسرائيليون حتى الثالثة صباحاً لينتقلوا الى الهجوم بالقنابل اليدوية والسكاكين على نقاط ارتكاز المصريين فوق الهضاب الوعرة . ساعتان من نضال قاس عنيف ، ترك فيهما المصريون ٢٠٠ قتيل . أما الخسارة الاسرائيلية فهي كما اعلن عنها : ٥٠ قتيلا و١٠٠ جريح . واصبحت الطريق حرة الى

السويس وراء ممر متلا .

وفي الليلة السابقة تراجع طابور مصري من السيارات المدرعة كان قد اتخذ طريقه الى متلا بعـــد ان هاجمته المطاردات الاسرائيلية .

ودخل جزء من الفرقة الاسرائيلية المتقدمة مدينة بورتوفيق تجاه السويس . أما الاجزاء الباقية فقد سارت على امتداد الشاطىء . وقذف مظليون فوق آبار البترول في طور في ٢ تشرين الثاني عند الساعة السادسة والنصف مساء . ودامت المعركة حول الآبار يوماً كاملاً .

وفي الخامس من تشرين الثاني ، وجدت القافلة نفسها أمام طرف شبه الجزيرة عند شرم الشيخ الذي كان قد بلغه طابور اخر منطلق من ميناء إيلات ومتجه على امتداد خليج العقبة ، مجتازا طريقه خلال الصخور وفجوات الجبال والاحجار المشهورة باستحالة اجتيازها . لقد كان جنود الحفر يوسعون الطريق بالديناميت لتمر فوقها الدبابات والشاحنات . وقد نثرت هذه الاخيرة جسورها الخلفية ، ومحاور عجلاتها ونوابضها الحديدية وهيا كلها في الصحاري المتحجرة .

لقد وجدت هذه القافلة نفسها وهي المؤلفة من مئتي سيارة عند نقطة انطلاقها في مساء ٣ أمام أحد أهدافهـــا التي كان الاسرائيليون في اشد الحاجة اليها : انه قلعة « رأس نصراني » التي كانت مدافعها الموضوعة تحت ملاجيء من الباطون المسلح موجهـــة نحو جزيرة تيران فتحول منذ سنوات دون مرور

المراكب الاسرائيليـــة في الممر البحري الضيق الذي يغلق خليج العقبة .

لقد كان مرفأ إيلات مدينة ميتة في نهاية الخليج بسبب هذه البطاريات . وكان الاسرائيليون يقاربون القلعة من بابها الخلفي ، فترك المدافعون المصريون قطعهم التي تعجز عن حمايتهم وانطلقوا لاجئين الى شرم الشيخ في طرف شبه الجزيرة حيث كانت توجد حامية مؤلفة من ١٥٠٠ رجل .

لم يكن الاسرائيليون يتقدمون فوق الطريق المعبدة الا بحذر شديد . لان نار الحامية توقفهم ولذلك ثبتوا في مراكزهم ينتظرون طائراتهم الخاصة .

اما الحامية فقد استبسلت في الدفاع عن نفسها بعد ان عزلت في شرم الشيخ . وقد وجب ان تتدخل الطائرات بقوى كثيفة فتستعمل قنابل النابالم المحرقة للقضاء على المقاومة .

ثم هرع بعض من المدافعين عن طريق الشاطيء مستقلين مراكب صغيرة الى جون سليمان على الضفة السعودية القريبة . ووقع الباقون من الاحيـــاء جنوداً وضباطاً أسرى في أيدي الاسرائيليين .

هذا والمعركة من أجل طريق القاهرة قد بدت معقدة تعقيداً من نوع آخر . ان أشد المراكز صلابة وقوة هو مركز ابو عجيلة في هذه الطريق . وقد وجدت فيه القوات الاسرائيلية الزاحفة نحو الغرب الى القناة ناراً كثيفة . وعندما اقترب موشى دايان فاجأته نار المدفعية القوية ، وأدرك أن احتلالها سيكلفه

جهداً وتضحيات .

ثم لم يحقق رغبته فيرغم الحامية المصرية على الاستسلام الا بعد ان اشتركت الطائرات من الجو تساندها دبابات ثقيلة من البر ، في معركة قذف قلبت أرض المنطقة رأساً على عقب .

لم يكن يخطر في بال عبد النـــاصر ان الهجوم الاسرائيلي سيكون هجوماً واسع النطاق . فلما شعر بشمول المعركة ورأى إقدام اليهود على خوضها بكل ما يملكون من قوة أمر فرقة من قواته المتمركزة في الدلتا بالاتجاه نحو الجبهة . ولم يكد يفعل حتى انفجرت فوق رأسه في مساء ٣١ تشرين الاول أول القنابل البريطانية المدمرة في أرض مطار القاهرة .

وفي صباح اليوم التالي كانت أفواج طائرات الحلفاء تضرب الطابور الآلي الطويل للفرقة المتجهة نحو الجبهة في سيناء ، لقد كانت هذه الطائرات طائرات فرنسية .

لقد كان لتدخل طائرات الحلفــــاء فضل اخلاء الجو فوق الجيوش الاسرائيلية وتحرير القادة والجنود والشعب الاسرائيليين من الخوف الذي كان يجثم فوق صدورهم .

وهكذا أصبح المصريون بين نارين ، بحيث توقف الطابور الآلي منتظراً الطائرات المصرية التي وصلت سريعاً لمقابلة العديد من طائرات الحلفاء والاسرائيليين . فاسقطت ثلاث طائرات اسرائيلية من طراز « موستانج » وطائرة من طراز ميستير الحديثة .

في هذه الاثناء كان المصريون في رفح يخوضون معركة عنيفة

ضد الغزاة ، الذين أرسلوا في ليـــلة سابقة سرية من المهندسين لتنظيف الارض من الالغام والاشرطة الشائكة . ولكنهم لم يلبثوا حتى فوجئوا بنار كثيفة أوقفتهم . فطلب الجنرال موشى دايان من الاميرال بارجو بعــد ان شعر باستحالة اختراق التحصينات المصرية ان ينجـــده بسفن حربية تدك له هذه التحصينات . فارسلت اليه الدارعة جوج ليج التي قصفت هذه المنطقه باربعمئة قنبلة من مدافعها الضخمة . وفي تمام السادسة صباحاً انطلقت القوات الاسرائيلية مهاجمة بعد ان اطمأنت الى انهيار المقاومة او هكذا ظن قادتها المسؤولون .

وكم كانت المفاجأة شديدة حين اضطرت هذه القوات الى خوض معركة عنيفة ضد الحامية المصرية التي لم تكن تزيد عن سريتين مسلحتين تسليحاً قوياً .

ودامت هذه المعركة ثلاث ساعات . وفي تمام التاسعة انتهت بتراجع ما بقي من جنود السريتين .

ثم تشكل طابور اسرائيلي آلي وتابع تقدمه نحو العريش . بحيث أدرك عبد الناصر حدود المؤامرة الواسعة المحبوكة لاحتلال سيناء كلها بالتعاون مع الحلفاء .

وكانت النهاية المنتظرة لمثل هذه العملية التي قضى أصحابها أسابيع طويلة في إعدادها بين لندن وباريس وقبرص وتل أبيب .

القوة الجوية :

امر بربح الحرب دون القيام بها

كانت هناك على الاقل مفاجأة بريطانية فرنسية على هامش المفاجأة الاسرائيلية العدوانية ، التي لم تكن فرنسا غريبة عنها .

لقد توقف الطيران المصري عن العمل . وتوقفه هو الذي وضع للحملة شروطها . ان الاسطول لم يكن قادراً على الاقتراب من الشاطىء ، وانزال جنوده قبل القضاء على طائرات ايليوشن القاذفة التي كانت تملكها مصر . وكذلك الامر بالنسبة الى طائرات الميغ التي لا يقل عددها عن ١٢٠ ومئة طائرة اخرى أقل جدة من هذه .

ورغم توقف الطيران المصري فقد ارتفعت الاصوات قائلة في كل مكان بأن الحملة على مصر حملة ذات نتائج تدميرية من جوانب مختلفة . لقد كان الجميع في خوف مقيم من القوة التي أصبحت مصر تتصرف بها . لا سيا وان ترميم ما خرّب من هذه

القوة يمكن في حدود مدة قصيرة جداً بمساعدة السوفيات . وقد اكتشف مكتب المعلومـــات الاسرائيلي ان لجنة آتية من موسكو قد بلغت القاهرة لتفاوض المصريين في تزويدهم باسلحة جديدة بعد حدوث عملية الانزال في بور سعيد باسبوع واحد . ثم ظهرت بعد شهرين طائرات ميغ ١٧ فوق سماء مصر وهي اكثر قوة واعظم تسلحاً من طائرات ميغ ١٥ ، مؤكدة صحة هذه المعلومات . والحقيقة ان هذه الطائرات قد خرجت من ورشات التركيب الموجودة في الاسكندرية بعد ان فتحت الصناديق التي تضم أجزاءها والموجودة في أرض مصر منذ مدة طويلة .

والثابت أيضاً أن هذه التجهيزات الجديدة لم تصل بسهولة بعد تغير الظروف السياسية وتدخل الولايات المتحدة تدخلاً مباشراً في شؤون الشرق الاوسط .

لقد قاتل الطيارون المصريون قتالاً ضارياً في سيناء . وضربوا الطوابير الاسرائيلية ضرباً عنيفاً موجعاً . ثم امتنعوا عن متابعة الضرب بعد ان اصيبت مطاراتهم باضرار فادحة سببها الطيران الفرنسي البريطاني .

وقد اضطررنا للرجوع الى باريس لاكتشاف السبب الاساسي لهذا التجمد المفاجىء : فعرفنا ان مطارات الدلتا والقناة قد قذفت بالمدافع الرشاشة والصواريخ في فترات متقاربة جداً لا يفصل بين الواحدة والاخرى اكثر من ربع ساعة فقط أو عشر دقائق في كثير من الاحوال . فلم يكن الميكانيكيون

المصريون قادرين على الخروج من مخابئهم خلال هذه الدقائق القليلة ، اذ لا يكادون يصلون الى المدارج حتى يفاجئهم طيران المتحالفين بغارة جديدة .

واذا عرفنا ان الطيران الالماني لم يحدث من الاضرار فوق مطارات بريطانيا ما أحدثه طيران المتحالفين في مطارات مصر أدركنا قيمة تدخل البريطانيين والفرنسيين .

سألنا الجنرال بروهون عما عسى يكون رد الفعل في قاعدة أوروبية أمام مثل هذا العدد من الغارات ...

فاجاب : قد يتاح للطائرات في البداية أن تخرج او تحاول الخروج ... ولكن الامر لا يلبث حتى يصبح في مرحـــلة الاستحالة .

هناك شيء بقي في الخفـاء ، هو المدة المحددة بين الانذار وبداية عمليات الانزال . إن هذا الانتظار الطويل قد قضى على كل امكانية في نجاح الحملة التي تستهدف عزل عبد الناصر وايجاد حكومة مصرية جديدة قبل ان يتدخل الاميركيون والروس حماة مصر الدوليون .

ان شرح هذا السر وتوضيحه هما في الحقيقة تاريخ الجانب « الجوي السيكولوجي » من الحملة .

كان ايدن الدبلوماسي الفطري كارهاً منذ البداية للقيـام بعملية انزال بحرية ، دون حوادث ، وكانت للطيران أفضليته الكبرى عنده. فالطيارون لا ينزلون الى الارض ، ولا يطلقون النار، ولا يخربون ولا ينتهكون الحرمات. انهم جنود كاملون،

جنود غائبون .

وفجأة أنصت ايدن باهتمام كلي الى أقوال قادة الطيران الملكي الذين يعيشون في جو الحرب الذرية . فأكدوا له ان تحقيق الهدف ممكن عن طريق القوة الجوية فقط .

لا شك ان ما ذكره هؤلاء القادة صحيح حتى ولو لم يستعن ايدن بالقنابل الذرية، لقد كانت قوات الطيران الملكي تستهدف اشاعة الشلل والجمود في أرض مصر كلها بعملية جوية سيكولوجية حاسمة. فضرب مركز القيادة في القاهرة بالصواريخ بينما تحرث أرض المطارات بقنابل الطيارات التي تطير فوقها ، وتباد المراكز العسكرية التقليدية : المراكز الكهربائية ، والمحطات ، والمراكز اللاسلكية ، والمستودعات والجسور وخزانات الوقود الخ . وتهاجم الطرق والخطوط الحديدية ، ويمنع كل انتقال ، ثم يهاجم الجنود في ثكناتهم ومراكزهم الخاصة . كل هذا جدير بتحقيق الاهداف التي يرمون .

يضاف الى ما سبق ان الجنرال فرجوسون ، أحد الاختصاصيين في حرب الاعصاب ، يهيء عشرات الاطنان من النشرات التي اعدت لالقائها فوق المدن المصرية والتي يبرر بها الحلفاء ضرورة اسقاط عبد الناصر .

وسئل الطيارون فاظهروا عدم ايمانهم بقيمة هذه الطريقة ، كما أظهروا قليلاً من الحماسة لقذف المدن بالحجج المطبوعة ، حتى ان القيادة العليا في قبرص قد استغنت عن القاء هذا الثلج من العواطف الطيبة فوق منطقة الدلتا .

وترك فرجوسون الجزيرة، مقتنعاً ان سبب فشل الحملة راجع الى عدم التوجه نحو العقلية السياسية للفلاحين وسكان المدن .

ومهما يكن الامر ، فقد ظهرت الخطة جذابة في نظر السيد ايدن حتى الفترة التي بدأت فيها دراسة التفصيلات .

لم يكن الغرض من الحملة ان تجعل من القاهرة روتردام جديدة أو كوفنتري أخرى ، لا سيما وان نار المطاردات القاذفة قد بلغت من دقة الاصابة حداً مدهشاً . أما أهداف الضرب لكل من الصواريخ والمدافع المتعددة فلا تزيد على ثلاثة أمتار في ثلاثة أمتار . ومن النادر ان يخطىء طيار مجرّب مثل هذه الاهداف باجهزته الاليكترونية .

كان ايدن يكرر القول : انه يجب ان لا تضرب غير الاهداف العسكرية التي يخليها العسكريون بعد ارسال التنبيه اليهم . ونحن لا نريد ان نحارب مصر أو نشيع الاضطراب في حياة المدنيين اليومية ، ومعنى هذا في نظر الفرنسيين هو محاولة الوصول الى الغاية دون التوسل اليها بوسائلها الطبيعية .

ان فشل هذه الحرب الجوية التي تجري على شكل المطرّزات مقدر بصورة مسبقة، وكذلك حملة « الموسكيتير » التي بنيت ووضعت على هذا الاساس .

ان اصرار ايدن على التمسك بعملية الحرب الجوية السيكولوجية هذه والبطء الفاضح الذي فرضه عليها فرضاً قد أشاعا الشلل في آلة الحلفاء الحربية .

ولما اقترح الفرنسيون تقصير مدة الامهال ٤٨ ساعة لم يأل

السيد ايدن وسعاً لايجاد حجة يؤخر بها الانزال البحري الذي لم يكن راغباً فيه أبداً : انه لم يكن عازما على التحرك باية سفينة بحرية من مالطة قبل بداية الهجوم الاسرائيلي ، لأنه لم يكن يريد ان يتهم بالتواطؤ مع اسرائيل . وبين مالطة وبور سعيد مع التحميل والتفريغ ثمانية أيام كاملة او سبعة على الاقل ...

أرسل الوزير الشاب بورجيس مونوري منذ بداية آب الى لندن شابا مثله هو الجنرال بروهون - أحدث قادة الجو الفرنسي عمراً وأبرزهم في قيادة أحدث الطائرات النفاثة ، وهو صديق البريطانيين منذ سنة ١٩٣٥ ، كما كان على آثار لورانس في الحجاز .

ثم أصبح في خدمة مكتب المعلومات البريطاني ، في عهد فيشي ، وعندما خاف من الفضيحة جاءت احدى طائرات لوكهيد فحملته الى لندن . وهناك خدم في الطيران الملكي قائداً لمجموعة من طائرات هاليفكس القاذفة ، فهز برلين وهمبورغ والرور . وقبيل أن يستدعى لتنظيم المكتب الثالث للقوة الجوية في جادة فكتور كان قد اجتاز مدرسة القتال في الطيران الملكي بنجاح . واشتغل خلال أربع سنوات مع الجنرال وايلي في البانتاجون . وتعوّد حياة الكواليس الوزارية والدبلوماسية في جيش الاطلسي . ولم يكن غريباً عن أحدث الطائرات النفاثة الاجنبية ، مما جعله قائداً لقاعدة ريمس حين زودت هذه القاعدة بالمطاردات القاذفة من طراز « ثاندر ستريك » .

إنه طويل رفيق حاسم . فهو جنرال شاب طيار كاولئك الذين يرسمون في المجلات النسائية . ولكنه مؤمن معتزل على غير رغبة ضباطه . إنه في الحقيقة مثقف جوي ، ذئب يلتهم الكتب في المكاتب ولا سيما المكاتب البريطانية .

كان عليه ان يدافع عن رأيه الذي تسانده فيه الحكومة الفرنسية : وخلاصته ، ضرب جوي في حدود المطارات ترافقه عمليات انزال للمظليين على امتداد القناة لتأمين مراقبة المجرى المائي الدولي خلال أربعة أيام .

اما عملية الانزال البحري فتصبح بعد ذلك عملية شكلية بحتة . تحمل الى بور سعيد قوات ودبابات ضرورية لتحقيق الارتباط بين النقاط الأستراتيجية بعد ان تكون المدينة وهذه النقاط كلها قد سقطت في ايدي المظليين .

واصطدم هذا الرأي بالذكرى التي يحتفظ بها البريطانيون عن الأفواج التي القي بها من الجو فوق نيماج وأرهيم فتعرضت للابادة والتفرق . وكان الجواب على خطته : لا إنزال للمظليين الا اذا ضمنت مساعدتهم بعد ١٢ ساعة من وصولهم الى الأرض على الأكثر . فالمظليون لا يمكنهم ان يكونوا اكثر من كشافة لعملية انزال قوية .

اما قائد الطيران البريطـــاني الفرنسي الذي عهد اليه أمر الانتصار في الحرب دون ان يخوضها فلا يسعه احتمال مسؤولية التعليمات المتناقضة التي كانت تفرض عليه . كان ماريشال الجو بارنت رجلا منطوياً على نفسه قصير القامة مكشوف الجبهة وعشيراً

لشعوب الشرق الاوسط . انه آخر مــن ترك من الضباط البريطانيين أرض مصر . لقد كان فيها حتى حزيران ١٩٥٦ . وهو طيار ممتاز وقائد موهوب بسلطة صامتة . كان اشتراكه في المناقشات اشتراكاً يبعث عــلى الاعجاب ويثير الى روح عملية عنده .

وقد عمل الطيرانان الفرنسي والبريطاني مندمجين دون احتكاك مزعج . وفي ٤ تشرين الثاني استقل بارنت مع قدة العمليات الآخرين سفينة من سفن الاسطول وعهد بالقيادة الى معاونه الفرنسي الذي مارسها حتى وقف اطلاق النار .

في ١٤ آب ، كان سائقو السيارات الذين حانت فترة اجازاتهم يلعنون ويصخبون في الطرق التي ينزلون بها قافلة لا تكاد تنتهي من السيارات الضخمة الى الشاطىء ، ٤٢٥ شاحنة تتجه نحو مرسيليا من بينها شاحنات حمولها ٤٥ طناً . انها قاعدة ريس التي تنتقل الى قاعدة قبرص . ومهما يكن من ضخامة القافلة فقد استطاعت العشرة الآلاف من أطنان التجهيزات والمواد المختلفة مع ثلاثة آلاف رجل أن تكمل السفر تقريباً في الخفاء .

وقد حملت القاعدة معها مصنعاً من الاوكسيجين المائع كانت أخف قطعه تزن عشرين طناً . وكان الفراغ في طائرات الثاندر ستريك* من القلة بحيث ان قناني الاوكسيجين المخصصة للطيارين لا تكاد تجد مكاناً لها . فبدلت بقنانٍ من الاوكسيجين المائع . أما في قبرص فلم تكن حاجة الى ابتياع هذه القناني بالمفرق لان المصنع كله قد حمل اليها ، كما حملت ورش الاصلاح بكاملها .

فتخضع طائرات ف ٨٤ بعد ساعة طيران واحدة مثلا لعملية تفتيشية فاحصة لا تقل عن ١٢ ساعة يشترك فيهـــا عدد من الميكانيكيين الاختصاصيين . هـــذا اذا لم تكن هناك ضرورة للاصلاح .

وكانت قواعد ستراسبورغ وتولوز تزود المقاتلين بالاجهزة . فحملت في البحر رافعات عملاقة ، وتسعون من مستودعات الوقود سعة كلها منهـــا ستون طناً . كما حملت اجهزة رادار لتوجيه الطائرات وحبال هرتزية لربط الميادين المختلفة بمراكز قيادات الاركان . يضاف الى هذا كله مئات من شاحنات الصواريخ ، والرشاشات وقطع التبديل .

كانت عملية تفريغ هذه الحمولات الضخمة في مرفأ فاماغوستا الهزيل شيئاً أشبه بعمل البهلوان . فرفعت حبال هرتزية ، وهي أحدث مبتدعات التكنيك الى قمة جبل ترودوس بواسطة طيارين أتوا من المانيا .

وكان البريطانيون يقولون : ان رفع هذه الحبال مستحيل . ولكن الذي حدث ان العمل قد تم خلال ٤٨ ساعة .

لقد حاز الكولونيل جوتييه ، قائد قاعدة ريس ، شهادة بطولة غير منتظرة بعد قيامه بعملية النقل والتفريغ . وقد كان جديراً به ان يصبح بطلاً عالمياً لو انه اشترك في مسابقة جوية أولمبية . انه في الاربعين من عمره ، وهو أحدث زعماء الجو الفرنسيين . اجتاز مدرسة القتال ، وأثبت من أعظم المنظمين الموهوبين .

ولما وقعت الواقعة كان ميكانيكيوه يعملون تقريباً دون نوم خلال أسبوع كامل . وكانت الطائرات تملأ الساحات كلها فتسد بها المنافذ . ولو حدثت غارة مصرية لكانت مجزرة رهيبة جداً .

لقد حمل الفرنسيون معهم ما يستخدمون به مئة مطاردة قاذفة . فلم يسعهم ان يحملوا الى اكروتيري غير مجموعتين من طائرات « ف ٨٤ » : اربعون طائرة آتية من ريمس، و١٥ ثاندر فلاش آتية من كونياك . أما في تيمبو فقد كان المطلوب يتصرفون باربعين طائرة من طراز « شمال ٢٥٠١ » . أما في ابيسكوبي ، مركز القيادة العامة ، فقد كانت للجنرال بروهون قيادتان ، إحداهما رسمية كمعاون لماريشال الجو بارنت البريطاني وثانيتهما سرية كقائد اعلى للقوات الفرنسية في اسرائيل . وقد كلف رئيس أركانه الكولونيل بردريزا بقيادة حركات المطاردات القاذفة الموجودة في حيفا واللد، بالتعاون مع الجنرال موشي دايان .

يضاف الى هذا ان ضباط اتصال اسرائيليين كانوا يعملون في ميدان اكروتيري على خطوتين من غرفة العمليات الفرنسية البريطانية دون ان يعلم بهم البريطانيون .

وفي ٢٢ تشرين الاول و٢٥ و ٢٦ ، اجتازت الطائرات الفرنسية مياه البحر الى اسرائيل مارة بالقرب من الشواطىء المصرية ، وهي مغامرة لا يدري أحد ما عسى يصيب طياري

الحلفاء بها من مفاجآت في الجو . وقد كان في وسع المدربين السوفيات والتشيكيين بالتعاون مع خيرة طلابهم ان يشكلوا قوة طيران مخيفة . ولكنهم لم يقودوا الطائرات التي كان زملاؤهم المصريون في عجز نسبي عن قيادتها . والظن القائل بان سبب هذه الظاهرة هو انشغال الروس باحوالهم الداخلية وثورات الدول التابعة لهم فيه شيء من المبالغة . على ان الواقع ان الروس قد كشفوا عن تعقل وحذر شديدين في مصر .

فاكتفى هؤلاء المدربون الذين في وسعهم تنظيم غارة كاسحة فوق قبرص بابعاد عشرين قاذفة الى مطار في الاقصر على مسافة ٥٠٠ كيلو متر من القاهرة جنوباً ، وبنقل بعض طائرات الميغ الى المطارات السعودية والسورية والاردنية ، يضاف اليها عشرون قاذفة من طراز ايليوشن . كما لم تر اية طائرة من طائرات الميغ ١٧ ذات القوة الفائقة والتي افتخر عبد الناصر بامتلاك عدد منها ، والتي كانت في الظن الغالب موجودة في صناديقها في ورشة التركيب التي رفع الروس قواعدها في الاسكندرية .

اما طائرات المتطوعين التي كان في وسعها خلال ساعات قليلة — ريثما يجف دهانها الجديد — ان تأتي من القوقاز وبلغاريا فتحطم الحملة المرسلة واسطولها الضخم فقد رفض خرشتشيف ارسالها الى مصر . وقد أبلغ المسؤولين المصريين رأيه بواسطة دبلوماسييه في بور سعيد والقاهرة .

كل شيء كان يحدث وكأن هناك حياداً متبادلاً بين الروس والاميركيين . فالروس لا يرسلون متطوعين ، والاميركيون

يعترضون المتحالفين . والتسوية النهائية لمعضلات الشرق الاوسط لن تعني غير القطبين الكبيرين .

وفي تمام السادسة من صباح ٣١ تشرين الاول تساءل الجميع عن السر الكامن وراء الجمود الجوي الحليف بعد ان انتهت مدة الانذار . فكان الجواب ان الطيران الملكي يرفض ان تتعرض قاذفاته لخطر ملاقاة الميغ ١٧ التي تفوقها في السرعة والقوة الا في الليل وعلى علو شاهق لا يقل عن ٤٥٠٠٠ قدم .

وفي اواخر هذا النهار الضائع ، وعند تمام السادسة والنصف من المساء، سقطت أول قنبلة من طائرات الكانبيرا ذات المحركين النفاثين فوق مطار الماظة .

كما وصلت من مالطة في الوقت نفسه مجموعة من الطائرات ذات الاربعة محركات نفـــاثة تحمل قنابل زنة كل منها ٥٠٠ كيلوغرام . وفي الدقيقة الاخيرة ، وقد استيقظ ضمير ايدن، صدر الأمر بعدم ارسال هذه الطائرات بعد اقلاعها وفوات الأوان .

ان القاذفات التي ترتفع الى ١٥ كيلومتراً في الجو وتسير بسرعة الف ميل في الساعة لا يمكن ان ترى اثناء الليل . وغاراتها عملية حسابية اكثر من اي شيء آخر . ومراقبتها في حاجة الى اجهزة فائقة التعقيد يشرف عليها اختصاصيون ذوو تجربة طويلة وتنبه دائم يتتبعون تنقلاتها باجهزة الرادار خطوة خطوة ويسجلون مراحل هذه التنقلات على لوحات ضخمة بحيث ترسل المطاردات في الوقت المناسب لعدم قدرتها على الطيران الطويل .

ومن الواجب القول ان مصر « بلاد ذهبية » على حد تعبير

الطيارين . فالجو فيها حسن صاف في الغالب الكثير ، وتضاريسها واضحة كما لو انها خريطة وضعت للصفوف الابتدائية : القناة ، والنيل ، والصحراء ، والمدن البيضاء في النهـــار ، والمشعة في الليل . ولكن هذه الافضلية تعمل لكل من المهاجم والمدافع .

والحق ان المصريين كانوا يملكون بعضـاً من اجهزة الرصد المعقدة لمتابعة الطائرات المغيرة.فلهم في بور سعيد والاسكندرية بعض أجهزة من الرادار الفرنسية ولهم في القنـاة ، جهاز رادار روسي . أما فيما سوى هذه المناطق فقد كان الفراغ التام.

لقد عجزت طائرات ايليوشن وميغ عن مقابلة الغزاة لافتقار المصريين الى آلاف من الاختصاصيين الذين يصلحون للسهر على طائرات أسرع من الصوت . ولذلك أقبلت طـائرات كانبيرا وفاليانت الذرية تلقي قنابلها فوق المطارات الكبيرة في الدلتـا والقناة . وفي اليوم التالي انطلقت طائرات التصوير الرائعة التي تسلمها الافرنسيون من الاميركيين وهي تحمل أحدث مبتدعات التكنيك التصويري الحديث بالاضافة الى براعـــة المصورين الفرنسيين .

اما نتائج هذه الغارات فقد كانت مخيبة للغاية . والسبب في ذلك ان الضبط في اطلاق النار وارسال القذائف متعذر من علو شاهق . فقد ظهرت الطائرات المصرية سليمة من كل أذى وبقيت مدارج المطارات صالحة للاستعمال ، والدليل على ذلك ان أربعين ايليوشن قاذفة قـد اختفت منذ الفجر ، فارسل عشرون منها الى مطار الأقصر ، وعشرون اخرى الى الارض السعودية يقودهـــا

المدربون السوفيات والتشيكيون الذين كانوا وحدهم قادرين على قيادتها بنجاح تام .

كما اخليت مصر من عشرين طائرة من طائرات اليسع . اما الطائرات الباقية وهي كثيرة فقد احتفظت بسلامتها من كل اذى .

وقبل ان تشرق شمس اليوم الاول من تشرين الثاني بدأت عملية التخريب الكبيرة . فانطلقت مجموعتان من الطائرات الافرنسية القاذفة (٤٠ طائرة) ومجموعتان بريطانيتان (٤٨ طائرة) وطائرات ثلاث حاملات (٢٠٠ طائرة) تضرب على التناوب أرض مصر . فتقذف بصواريخها وقنابلها ورشاشاتها كل ما تلتقيه من مطارات وثكنات ومراكز عسكرية مختلفة .

لقد كانت تقلع من مطار أكروتيري أربع طائرات قاذفة في كل دقيقتين ثم ترجع بعد ساعة ونصف لتقلع وتعود الى شن غاراتها كرة اخرى .

ان المخيلة الانسانية في غير حاجة الى جهد كبير لتصور ضخامة هذا الضرب الفظيع الذي تناول أرض مصر من أقصاها الى اقصاها . بحيث ان الطيار المصري والميكانيكي المصري لا يجدان من الوقت ما يسمح لهم بالخروج من الملاجيء والاتجاه الى المدارج ، فلا يكادان يفعلان حتى تكون موجة جديدة من الطائرات المغيرة قد وصلت .

وتتابع القذف على هذه الصورة منذ السابعة صباحاً حتى السادسة والنصف مساء ، بحيث استحال الاقتراب من اية طائرة

جائة فوق الارض .

وفي الليل انطلقت القاذفات كل منها ثلاث مرات او اربعاً. اما في اليوم التالي فقد زاد عنف القذف واشتركت طائرات جديدة مزودة بقوة تخريبية كبيرة من طراز الكورسير والاروماتش مع الطائرات السابقة في ضرب الاهداف المختلفة .

وقد سألنا الطيارين الفرنسيين عن سر امتناع المصريين عن مقابلة طائراتهم فكان مما قالوه : ان عبد الناصر قد فكر في الاحتفاظ بطياريه وميكانيكييه على أمل أن يحل الروس المتطوعون محلهم .وقد يكون هذا الرأي صحيحاً حين نعلم ان عبد الناصر قد أمر قواته بالانسحاب من سيناء والتمركز في الدلتا وحول القاهرة ، فتلقى بعمله هذا تقدير الجميع .

وقد نجد توافقاً بين سلبية الطيران المصري وبين الأمر الذي اصدره عبد الناصر الى أحسن قواته في بور سعيد بالانسحاب من المدينة قبل بداية عملية الانزال البحرية .

وبذلك كان عبد الناصر من البراعة بحيث وقف أمام هيئة الامم موقف الضحية البريئة ليجعل من تدخلها شيئاً ذا فعالية تامة .

ولو ان السيد ايدن قد قبل بالقيام بحرب سريعة صاعقة لكفينا مؤونة الهزيمة والفشل . إنه كان يصر دائماً على خوض معركة جوية سيكولوجية يستهدف بها تحطيم اعصاب المصريين ، ظناً منه ان ضرباً جوياً متلاحقاً سيفرض على عبد الناصر ان يتنازل عن رئاسته وعلى الشعب ان يتمرد على قادته .

لقد كانت التعليمات واضحة حاسمة: لا تضربوا المدن والتزموا الاهداف العسكرية فقط. واستثنيت محطة الاذاعة من الجسور والطرق والخطوط الحديدية والسيارات فاذن بضربها بالقنابل فاقبلت طائرات الكانبيرا تقذفها، فاذا بها تسجل اصابة طفيفة لم تلبث الاذاعة من بعد ان عادت الى نشاطها خلال ساعات قليلة.

واتجهت الطائرات القاذفة من بعد ذلك الى ضاحية من ضواحي القاهرة تجمعت فيها مئات من الدبابات والسيارات المدرعة. فقابلتها نيران حامية شديدة ولكنها قذفت هذه التجمعات بالصواريخ والقنابل.

أما اجهزة الرادار في الاسكندرية وبور سعيد وابو سلطان في قناة السويس فقد دمرتها الطائرات الفرنسية.

كانت مدافع المصريين المضادة للطائرات في غضب مقيم، وكانت تتحسن وتسجل نجاحاً في اصابة أهدافها يوماً بعد يوم. وكان عدد الطائرات الافرنسية والبريطانية المعطوبة غير قليل.

وقد اعترف الطيارون الذين واجهوا هذه البطاريات ان رجال المدفعية المصريين ماهرون وشجعان. فهم في البداية على قسط قليل من التدريب، ولكنهم لم يلبثوا خلال ثمانية أيام حتى سجلوا نجاحاً عظيما مخيفاً في اصابة اهدافهم. ولو انهم كانوا يتقنون استعمال المدافع الروسية التي تستعين باجهزة الرادار لقضوا قضاء تاماً على أمواج المطاردات القاذفة. ان عهدهم بمدرسة المدافع المضادة للطائرات جد قريب. أما طائرات الكورسير فقد اشتركت في قذف مطار الدخيلة قرب الاسكندرية. وقذفت

في اليوم التـــالي مطار الماظة في الدلتا حيث هدمت الحظائر واحرقت بعضاً من طائرات الميغ .

وفي خضم القذف العنيف ودخان الحرائق المندلعة سقطت إحدى طائرات الكورسير التي يقودها الملازم لانكرانون بعد اصابتها بقذائف المدفعية المضادة. وتلطفت اذاعة القاهرة فوجهت تعزيتها الى زوجته واطفاله مع خطاب ذي طابع دعاوي وضع بعناية خاصة .

وفي ٥ تشرين الاول وصلت حاملات الطائرات الفرنسية الى بور سعيد تحمل طائراتها التي كانت ستزود المظليين بسند حاسم فاصل .

معركة بين قنصلين

كانت تقابل معركة بور سعيد التي جرت يوم بدأ الانزال البحري في ٦ تشرين الثاني ١٩٥٦ معركة اخرى وراء الكواليس. انها معركة رجلين يتقـــاتلان دون ان يرى احدهما الآخر. دبلوماسيان متميزان: قنصل إيطاليا، الكونت فينشنتي ماريري وقنصل الاتحاد السوفياتي، أناتولي تشيكوف.

كان القنصل الايطالي يناضل للحصول على وقف اطلاق النار وتجميد المعركة عند اعتاب المدينة، وانقاذ الارواح، والحد من الخسائر المادية. انه لم يكن حليفاً للفرنسيين والبريطانيين، بل لعله أقرب الى مخاصمة البريطانيين خاصة. ولكنه كان يدافع عن افراد جالية بلاده وعددهم ١٥٠٠ وعن المدنيين الاوروبيين والآخرين كلهم أيضاً ...

والثابت انه كان يعمل لمصلحة بلاده التي تمثلها اكبر جالية في مصر بعد الجالية اليونانية محاولا الاحتفاظ بمواقعها التاريخية

القديمة . وقام بدوره في نوع من لباقة واستقلال بحيث انه اتخذ في بور سعيد وجه الضمير البشري .

ولو قدر للجنة السويدية ان تمنح جائزتها ، التي خصصها نوبل للعاملين للسلام لمستحقيها لاستحق هذا القنصل منحتها بشهادة مراسلي الصحف الافرنسية الذين شهدوه يعمل باخلاص خلال المأساة التي امتدت اسبوعاً كاملاً .

لقد اصبح خلال أيام قليلة بقامته الرقيقة ووجهه الشاب الذي لم يتأثر بالتعب الشديد بعد أربع ليـــال قضاها ساهراً لا ينام شخصية شعبية في مدينة بور سعيد . كان هذا القنصل يناضل على عشر جبهات محتفظاً في كل دقيقة بدماثته وظرفه وهدوء أعصابه. فكان يفاوض في وقف اطلاق النار ، ويوزع المؤن ويقوم بمهمة البلديات ويفتح مستشفى ويدافع عن المصريين... لقد كان منحة السماء لبور سعيد .

اما خصمه فقد بقي خفياً . ولكنه لم يكن اقل حضوراً منه ولا أقل حيوية . انه قنصل الاتحاد السوفياتي . فقد كان يناضل من اجل تطويل المعركة لتصبح بور سعيد ستالينغراد جديدة. فقدم السلاح الى الجميع ، وعمل على وقف اطلاق النار ، ونظم اضراباً شاملاً ضد المحتلين . ووزع منشورات كثيرة تشجع على الصمود . لقد كان دبلوماسياً صلباً يتنقل بسيارة ليموزين سوداء فلا يكاد يكف عن التنقل من طرف من اطراف المدينة الى آخر . وذلك منذ بداية الانزال البحري حتى غادر الحلفاء أرض مصر .

لقد لعبت موسكو خلال العمليات الحربية لعبة دقيقة حذرة متوازنة بمهارة مع السياسة الاميركية . انها تقوم بكل عمليات التخويف ضد باريس ولندن ، واعدة بالتدخل دون ان تفعل ، ساحبة غواصاتها ، وطياريها ، ودباباتها ، ومدربيها في الوقت الذي كانت تعلن فيه عن استعداد متطوعيها لخوض المعركة .

ان سرية من طائرات ايليوشن يقودها طيارون متطوعون كانت قادرة على تحويل الانزال الحليف الى مأساة بشرية . ويكفيها لتحقيق هذه الغاية طيران ثمانين دقيقة ابتداء من البحر الاسود.. ولكن قنصل الاتحاد السوفياتي الصلب في بور سعيد يساوي وحده جيشاً .

لقد لعب السيد تشيكوف بتمديده المعركة يوماً كاملاً دوراً حاسماً في مغامرة الحملة على مصر . ومع انه لم يكن العامل الوحيد في تأخير التقدم الفرنسي البريطاني بسبب اشتراك عوامل اخرى فيه ، فقد كان ذا أثر كبير في عملية الوقوف التي جمدت قوات الحلفاء أمـــام القنطرة على مسافة ١٢٠ كيلومتراً من السويس .

كان قنصل ايطاليا في تشرين الاول في بور سعيد الشخص الوحيد الذي يعرف بالتجربة ما تعنيه عملية الانزال البحري . لقد كان في بكين حين استولى اليابانيون عليها . وكان في سايغون حين اسلم اليابانيون السلطة الى رجال الثورة في الهند الصينية ، كما كان فيها ايضاً حين نزل فيها الافرنسيون واسترجعوها .

كانت اذاعة قبرص تعلن يوماً بعد يوم عن وصول الحلفاء . فلم

يصدقهـــا احد إلا هو . لقد انتظر المصريون وصول حاملات الطائرات الى مينـاني الاسكندرية وبور سعيـد بين ١٢ و١٤ ايلول . ولما لم يروها اعتقدوا ان كل ما تذيعه اذاعة قبرس انما هو خداع وتضليل .

اما القنصل الايطالي فقد كان ينتظر المعركة . ولذلك نظم قنصليته الايطالية بحيث تصلح للجوء الايطاليين اليها والمدنيين الاوروبيين .

كان يجمع فيهـــا مخزونات من المواد الغذائية والادوية والوقود والماء . وكان يبتاع قناديل البترول والاوراق الزرقاء لتغطية زجاج النوافذ. كما اخلى المدرسة الايطالية المتصلة بقنصليته من مقاعد الطلاب وحولها الى مستشفى يتسع لستين سريراً . واتفق مع بعض اصحاب الشاحنات على نقل العائلات من المناطق المهددة عند الضرورة وطلب اليهم ايقاف سياراتهم في باحة الدير المجاور للاخوات الفرنسيسكانيات في سائقيها .

كان بعض زملائه يقولون : ماريري مصاب بالحمى .

في ٤ تشرين الثاني الموافق أحـد أيام الآحاد وبينما نخبة بور سعيد كلها مجتمعة على عادتها أمام فناء الكازينو. الموسيقى تصدح هادئة ناعمة ، وبياض المناضد ناصع نظيف والمصابيح الوردية مضيئة وباقات الأزهـار منتثرة ، واعضاء لجنـة تسفير موظفي الشركة العالمية يتناولون فطورهم الذي يقدمه اليهم رؤساء خدم الفندق . توقفت الموسيقى فجأة ، واختلط الحابل بالنابل . لقد وصلت طائرات الحلفاء تنقض فوق المجرى المائي عنـد مدخله

وقد ارسلت صفيراً راعداً وقذفت صواريخها وطلقات رشاشاتها الثقيلة حول التحصينات الصغيرة المتناثرة .

فكان المشهد رائعاً ومخيفاً في الوقت نفسه تنبعث فيه الوان مختلفة كما لو انه ستارة فضية واسعة تجري فيها مشاهد سينمائية ملونة .

اما حول الناس ، فوق الشرفات والافنية فقد انتشر الجنود ورجال الشرطة بارديتهم السوداء وشبان من جيش التحرير الوطني كانوا قد تسلموا اسلحتهم امس الاول . كلهم يطلقون نيرانهم على الطائرات المغيرة التي تنطلق بسرعة الف كيلو متر في الساعة .

وفي مساء اليوم نفسه اذاع راديو قبرص نداء الى سكان بور سعيد يطالبهم باخلاء الشواطىء حتى شارع توفيق .

ولكن شيئاً لم يتغير في المدينة . فقد بقيت المقاهي مفتوحة كالعادة وتابع السكان حياتهم اليومية ، كان الجو صافياً والبحر هادئاً ، وقد رسمت الحكومة ان تدفع للعمال والموظفين اجورهم قبل الوقت المعين بما اشاع في نفوس الاهلين انفراجاً غير عادي .

وفي فجر اليوم التالي احيطت المدينة بطلقات الرشاشات والمدفعية ، وبدأت الوان مختلفة تظهر في الافق . انها اردية المظليين الحلفاء الذين نزلوا فوق مطار الجميل ليفتحوا طريق الجنوب الى السويس . ثم انطلقت موجة اخرى من المظليين فوق بور فؤاد من بعد ظهر اليوم نفسه . وهنا سرى الخوف في

قلوب أفراد الجاليات الايطالية والاوروبية فاسرعوا مشاة نحو مبنى القنصلية الايطالية تحت صفير الطلقات ودوي القذائف، وتزاحم عند مدخل القنصلية، واقتتل الناس مفتشين عن ملجأ لهم في أقبية القنصلية الرحبة.

أما في الشوارع فقد انطلق الشبان المصريون يحملون بنادقهم ورشيشاتهم للدفاع عن المدينة. وكانوا قد قضوا أسابيع من قبل يتمرنون على هـــذه الاسلحة. في هذه الاثناء كان السيد تشكيوف، قنصل الاتحاد السوفياتي، ينشط بقوة وعزم، فاظهر البراعة والذكاء وقوة الشخصية ما جعله بحق موضع ثقة رؤسائه. لقد عين قنصلاً في بور سعيد، لان بور سعيد هي مركز القتال الاساسي.

كانت حريته في العمل تامة، اذ لا يشغله من شؤون الادارة في القنصلية شيء، لان بور سعيد خالية من جاليـــة روسية، والزوار الوحيدون الذين يأتون القنصلية هم الربابنة الروس الذين أتوا لقيادة السفن من كل جنس بالاشتراك مع ربابنة آخرين عبر المجرى المائي.

لقد عقـد رجل شبيلوف، صداقة وثيقة مع الكولونيل رشدي، مدير الشرطـة الخاصة لمنطقة القناة، وهو اليد اليمنى لعبد الناصر، وكان هذا الكولونيل قد القى القبض على الشيوعيين وأنصارهم من النقابيين فزجهم في السجون.

حاول القنصل بالتعاون مع رشدي ان يعمل المستحيل لتقوية حامية بور سعيد ووضع خطط الدفاع وإشاعة الحماسة في المدينة.

كان يقول ، يجب علي بور سعيد ان تصبح ستالينغراد جديدة اذا نزلت قوات الحلفاء ، وكان أحد المطالبين باحداث التخريب في القناة بعد توجيه الانذار ، فنادى باغراق سفن الشركة العالمية أمام بور سعيد .

أما فيما يتعلق بالدفاع عن المدينة فقد أصابته خيبة شديدة بعد ان سحبت الحكومة المصرية أحسن قواتها من شبه الجزيرة، ولم تبق من الحامية غير ثلاثة آلاف جندي انضم اليهم ١٥٠٠ من رجال الشرطة . لقد كانت خطة الحكومة المصرية مخالفة لخطته .

في هذه الأثناء تكاثر اللاجئون في مبنى القنصلية الايطالية ، الناس يركضون وقد احنوا ظهورهم كما لو انهم يسيرون تحت وابل من الثلج . فالطلقات النارية وقذائف المدافع وصفير الطائرات والموت الذي يختبىء في كل زاوية من زوايا الشوارع هذه كلها كانت تزرع الرعب القاتل في نفوس الاوروبيين المدنيين على اختلاف جنسياتهم .

كان القنصل الايطالي ينادي فيمن حوله ، على متطوعين يساعدونه في انقاذ العائلات المتعرضة للخطر ، فلم يقابله غير الصمت . وعندما اجتاز الى الباب الخارجي لم يكن يتبعه غير السائق المصري محمود وعامل ايطالي (بونتيزي) .

وانطلق السيد ماريري يتبعه مساعداه نحو دير الفرنسيسكانيات حيث وضع شاحناته المستأجرة وسائقيها . فاذا به يجد عند الباب الخارجي للدير شاحنة ضخمة محملة بالذخائر ، تهدد بنسف الحي

كله .

لقد اختفى سائقو القنصل . فاتجه ماريري الى المرآب فوجد بابه مقفلاً . وسأل القنصل : عمن يحمل المفتاح ؟

فأجابته احدى الاخوات : الام الرئيسة هي التي تحمله في مكتبها مع بقية المفاتيح . ولكنهـــا في خضم هذا الفزع قد أضاعته .

فرجع السيد ماريري الى القنصلية واستقل سيارته الخاصة من طراز (فيات) واتجه نحو العنوان الاول من قائمة الاخلاء التي نظمها . انه اكثر المنازل تعرضاً للخطر، فهو أقربها الى جبهة البحر . انه بيت باتريا .

اوقف سيارته أمام الباب ونادى بأعلى صوته .

— ماذا تريد من السيد باتريا ؟ سأله رجلٌ مطـلٌ من نافذة الطابق الاول وهو في الغلالة .

— قل له ان ينزل حالاً ، انني آت لمرافقتـه مع عائلته الى ملجأ القنصلية .

— أراك مصدقاً ما يقال من ان الانزال سيحدث في القريب العاجل .

— قلت لك : ارسل الي السيد باتريا !

— هون عليك ! فان هذا البيت ليس اكثر تعرضاً للخطر من سواه .

— ولكني ارجوك ، فانا القنصل الايطالي . تعال والسيـد باتريا فالتجئا الى القنصلية .

– انني لا أستطيع ان انادي عليه . لأن باتريا هو أنا !

وهكذا قضى القنصل يومه كله يحمل الى قنصليته من الشيوخ والاطفال والنساء من يسأله العون والمساعدة .

وكانت موجات من الجنود تنطلق من الشاطىء تحمل الجرحى الى الاحياء الاوروبية وتترك وراءها الاموات الذين بقيت جثثهم ثلاثة أيام على الشاطىء القريب وقد بلغت شدة المعركة أقصاها .

وفي المساء أصبحت سيارة السيد ماريري شلواً ممزقاً . اخترقتها طلقات نارية من أعلى وأصابت زجاجها الامامي طلقات مثلها . أما مقاعدها فقد خربت وتمزقت . ولم يبق صالحاً منها غير مقعد السائق اي ماريري نفسه .

لقد نجا السيد ماريري من الموت باعجوبة .

وكانت مئات من العائلات من أجناس أوروبية مختلفة قد ملأت غرف مبنى القنصلية ، كما حمل عشرات الجرحى الى المستشفى الذي ارتجله القنصل ارتجالاً في المدرسة المجاورة له .

ولم ينس السيد ماريري ان يحتجز طبيباً جراحياً لمثل هذه الايام العصيبة . ولكنه لم يستطع الاحتفاظ به خلال النكبة .

كانت النيران قد بدأت تندلع في منطقة مربعة طول ضلعها ٤٠٠ متر قائمة قرب المطار ، وقد أقيمت قريباً منها بطاريات المدافع المضادة للطائرات ، وظهرت المدينة بهذه النيران الواسعة وكأنما بعث لذكرى مدينة أمستردام التي تعرضت لقذف طائرات اللفتواف الالمانية في الحرب العالمية الاخيرة .

واتصل السيد ماريري بروما يطلب العون لآلاف اللاجئين من ايطاليين وعرب قذفت بهم النيران عن بيوتهم عراة او أشباه عراة، اتصل يطلب ثياباً وأغذية وأدوية توسل فوق سفينة قادرة على إخلاء المدينة من أفراد الجالية الايطالية .

فاعدت الحكومة الايطالية باخرة خاصة أفرغت فيها أربعة آلاف طن من الثياب والأغذية وحولت قسما كبيراً من أبهائها وغرفها الى مستشفى وزودتها بستة أطباء و١٢ ممرضة .

ولكن حملة الانزال البحري سبقت الباخرة الايطالية .

فقد انفجرت جهنم بكل ما تحتويه من لهب ومتفجرات في اليوم التالي لنزول المظليين أي في ٦ تشرين الثاني، فظهرت السماء وكأنها تكاد تنقض فوق الناس ، والطائرات تملأ الجو بصفيرها الراعب المخيف ، والانفجارات تتتابع في حركات متسارعة، ثم اسودت السماء وقد انتشرت فيها موجات ضخمة من الدخان تنطلق من مستودعين للبترول اصابتهما قنبلة من قنابل المغيرين . وظهرت الشمس في الصباح وكأنها قمر باهت اللون . لقد بدأ الانزال البحري .

وبينما كاد النـــاس يطمئنون الى ما اذيع من قرب وقف اطلاق النار الذي أعلنت عنه الاذاعة البريطانية في لندن اذا بهم يفاجأون بهـذه الموجة العاتية من النيران والطائرات والقنابل والسفن الماخرة عند الشاطىء والتي كانت تحمل كلها لخيال الناس صورة الفزع الأكبر .

واتصل السيد ماريري بقناصل الدول الاخرى عند الساعة

السابعة من الصباح طالباً عقد اجتماع عاجل للاتصال بالفريقين المتقاتلين والاتفاق معهما على اعتبار بور سعيد مدينة مفتوحة انقاذاً لأرواح المدنيين والعاجزين من الشيوخ والاطفال والنساء .

ثم تتابعت موجات الغزاة المغيرين وتلاحقت صفوفهم تنزل من السماء او تصعد من البحر ، واحيط بمدينة بور فؤاد التي يقود المغيرين فيها الكولونيل بروتيه الفرنسي . وأخيراً أشار طيار أميركي ومهندس هولندي على الكولونيل أن يستعين بطبيب جراح لبناني ، الدكتور حجار ، ليكون وسيطاً في مفاوضات وقف اطلاق النار .

وتم الاتصال بين محافظ المدينة المصري رياض والكولونيل الفرنسي تلفونياً .

ـ ما هي شروطكم ؟ سأل المحافظ المصري .

ـ اجمع رجالك في ثكنات وارفع العلم الابيض .

ـ أنا في حاجة الى فرصة .

ـ انني امنحك ساعة

وبعد ان التحق الجنرال ماسو بالفرق المحتلة في بور فؤاد وانضم الى الكولونيل بروتيه ، جاء الجواب من قبل الجانب المصري بالرفض .

واتصل الدكتور حجار بالكولونيل رشدي قائد المنطقة ، فقال له الكولونيل انني سأتابع المعركة حتى النهاية ، ولو خربت المدينة وانقلبت رأساً على عقب .

في هذه الاثناء كان الجنود المغاوير من التابعيـة البريطانية يمرون قرب نوافذ القنصلية الايطالية في بور سعيد، فهاج القنصل وثار، وراح يتصل بجهات مختلفة في موجة من القلق العارم، وانطلق الى احدى النوافذ في الطابق الاول ففتحها والقى منهـا رزمة من الاوراق، ولكنه لم يكد يفعل حتى أزّت أمامـه رصاصات متتابعة . فاغلق النافذة وقد كاد يجد الموت.

وفي التاسعة صباحاً انفجر دوي هائل عند سور القنصلية، فقد كانت دبابة بريطانيـة من طراز (سنتوريون) تقتحم السور لتقتل ثلاثة رجال من المقاومين كانوا يطلقون النار عليها، ولما فتح القنصل النافـذة اكتشف ثلاث جثث مسجاة وراء السور .

كان الجنود البريطانيون يصطدمون في زحفهم الكثيف بنار كثيفة مثله آتية من الجانب المصري .

وحاول السيد ماريري الاتصـال كرة اخرى بالكولونيل رشدي، ولكنه لم يجده، بينما كانت الحامية المصرية تستبسل في مقاومة المغيرين الذين يفوقونها عدداً وعدد أضعافاً مضاعفة .

وبعد أن تم الاتصال رفض السيد رشدي الدخول في أية مفاوضة قبل الاتصال بالقاهرة .

فلم يتردد القنصل في محاولة الاتصـال بسفارته في القاهرة، راجياً ان تقوم بالترتيبات اللازمة مع سيادة الرئيس عبد الناصر واقناعه بضرورة وقف اطلاق النار في بور سعيد التي تتعرض لخراب ماحق وخسائر بشرية ضخمة .

ولكن المركز التلفوني لم يصله بالقاهرة قائلاً له : الخطوط كلها مشغولة . وهناك خط خاص يراقبه السيد رشدي نفسه فلا يسمح لأحد باستعماله، فتأكد القنصل عند ذلك وكانت الساعة قد قاربت الحادية عشرة ان التفاوض على وقف اطلاق النار لن يتحقق أبداً ، وان المعركة في تزايد مستمر .

حاول السيد ماريري بعد ذلك أن يتصل بزميله الاميركي يرجوه التدخل مع الجانب المصري والاصرار على ارسال وفد للمفاوضة في تمام الحادية العشرة الى مبنى القنصلية .

وكان الجواب على هذه الاتصالات ان سيارات كثيرة انتشرت في الشوارع تبعث بنداءاتها الشجاعة وروح المقاومة عند رجال الحامية ولا سيما جنود جيش التحرير الذين يستبسلون في نضالهم اليائس .

وفي الساعة ١١ وصل الجنرال بوفر الفرنسي يرافقه الجنرالان البريطانيان مادوك وستيفنس يحرسهم فريق من الجنود ومعهم ضابط مصري أسره المظليون البريطانيون في مطار الجميل ، الى مبنى القنصلية الايطالية .

هل هناك استسلام جدي ؟سأل الجنرال بوفر مخاطبه القنصل الايطالي .

فاجيب : ليس هناك استسلام بل امكانية ايقاف اطلاق النار . وبعد محادثات تليفونية كثيرة مع الجانب المصري الذي يمثله الكولونيل رشدي ، باءت المفاوضات بالفشل . وخرج القادة البريطانيان والفرنسي وقد عزموا على اقتحام ما بقي من المدينة واحتلالها بيتاً بيتاً وشارعاً شارعاً .

تراجع امام الهدف

سحب الرئيس عبد الناصر احسن قواته الى منطقة الدلتا . واتخذ الجميع قواعدهم المرسومة لهم عند صباح ٦ تشرين الثاني . فقد كان مصمماً على الدفاع عن القاهرة .

أما الاسرائيليون فكانوا ينتظرون بعيداً عن الضفة الآسيوية للقناة اقتراب القوات الفرنسية والبريطانية والتي ستمد اليهم يد العون عند الضرورة .

في هذه الاثناء كان ايدن مهدداً بالموت .

اذ لم تعد القناة البلاستيكية التي وضعها له الاطباء الاميركيون في أحشائه منذ ثلاث سنوات صالحة للعمل ، وكان جسده مرهقاً تحت سيل من الاعباء والازمات النفسية والليالي الطويلة التي قضاها ساهراً والهجمات التي شنها عليه العالم ولا سيما جبهة المعارضة في مجلس العموم ، وبصورة أخص الجبهة المعارضة له في صفوف حزبه . لقد كان ايدن يتمسك بمنضدته في حالة

من التشنج الشديد ليحتمل الآلام التي تمزقه .

لقد تأثر تاريخ بريطانيا في يوم من الأيام بسبب الحصاة التي كانت موجودة في المجرى البولي لجسد كرومويل .

وبعد ذلك بثلاثمئة سنة تتكرر هذه المأساة بسبب القناة البلاستيكية التي وضعها الاطباء الاميركيون في أحشاء ايدن ليتقرر لقناة السويس مصير جديد .

في الليلة السابقة للخامس من تشرين الثاني وصل السيدان بورجيس مونوري وكريستيان بينو لتقوية معنويات ايدن الذي بدأ ينحني أمام الضغط العالمي واحتجاجات الكومنولث وتهديدات هيوغيتسكل زعيم المعارضة في مجلس العموم .

فوجدا في « ١٠ داوننج ستريت » رجلاً محطماً هدته الأزمات فانهارت أعصابه ، على انهما هما نفسيهما في حاجة الى من يجدد فيهما النشاط ويبعث فيهما القوة والامل . لقد انهكتهما ليالٍ طويلة من السهر المضني ، ولولا ان فرنسا برمتها وراءهما لكان من الممكن ان يصيبهما ما أصاب ايدن نفسه .

لقد كان ايدن عاجزاً عن ضبط مجلس وزرائه والسيطرة عليه بعد ان سيطر على آلامه الجسدية ، وعلى رأس المعارضين لسياسته هذه نائبه راب بطلر واقوى المرشحين لخلافته من بين أعضاء حزبه . كان راب يهدد بالاستقالة يلحقه سبعة من الوزراء خلال ٢٤ ساعة ان لم تتوقف المعركة .

ووراء هؤلاء الوزراء اربعون نائباً من حزب المحافظين يهددون بالاقتراع ضد مجلس الوزراء .

هذا بالاضافة الى قوة رجال البترول الذين كان ايدن يستهين بهم من قبل .

وفي تمام الساعة ١١ من مساء هذا اليوم انطلق انذار بولغانين يهدد باريس ولندن ان لم تكفا عن العدوان ، لا سيما وان في هذا الانذار تلميحاً باستعمال الصواريخ الذرية ضد العاصمتين في النص الذي أذيع في داخل الاتحاد السوفياتي ونقلته وكالة الانباء الفرنسية ا - ف - ب .

كما وجه انذار الى اسرائيل أشد عنفاً يهدد باعادة النظر في وجود هذه الدولة .

وقد بعثت رسائل التهديد هذه في أرجاء باريس حاله نفسية مستعصية على الوصف . ان الحرب الذرية ستنفجر في كل ساعة .

وحملت رسالة التهديد الى السيد غي موليه في قصر الماتينيون في باريس من قبل السيد جوكس السكرتير العام « للكيه دورسيه » .

فتساءل رئيس مجلس الوزراء الفرنسي عن موقف البريطانيين ؟ وطلب الاتصال بالسيد شوفال في لندن .

كان السفير الفرنسي في منزله الهادىء القائم قريباً من نايتسبريدج . وبعد عشر دقائق من حدوث الاتصال التلفوني لاحظ السيد شوفال ان وزارة الخارجية التي تسلمت الانذار لم تجد ضرورة ملحة لايقاظ السيد ايدن الذي كان قد ذهب الى منزله .

وتلاحق الوزراء الفرنسيون الى القصر حتى ان بعضهم لم يكد يضع شاله فوق معطفه الذي لبسه سريعاً فوق غلالة نومه .

كان رئيس الوزراء الفرنسي محتفظاً بهدوء أعصابه ، وكان يتساءل قائلاً : انه لا يسع الاتحاد السوفياتي ان ينقل الحرب الذرية الى اوروبا دون ان تصلى بلاده بنارها . كما انه لا يسع الولايات المتحدة ان تترك جيش الاطلنطي وحده . ومع هذا كله فان الاتحاد السوفياتي الذي وجد حرية في العمل مقلقة قد اصبح حليفـــاً للولايات المتحدة في هيئة الامم ضد المعتدين في القناة .

وهو لم يكتف بهذا النصر بل أعلن عن نيته في ارسال المتطوعين المسلمين الروس الذين يبغون الالتحـــاق بالقوات المصرية .

فحملت هـذه الاخبـــار التي أذاعتها الاذاعات العربيـة والسوفياتية الى القيادة في قبرص موجة من الاضطراب والقلق ، لا سيما وان سوريا قد بدأت تتحول ميداناً صالحاً لحملة تدخل روسية ، فقد كانت طائرات الميغ تصل تباعاً وفي موجات كبيرة الى المطارات السورية .

وقد بلغ الفزع حداً جعل الناس في أكروتيري في قبرص يهربون الى الملاجىء حين جاءت طائرة من طائرات الكانبيرا البريطانية تحط فوق أرض المطار تتبعها طائرة فرنسية من طراز « تاندر ستيك » وظن النـــاس لاول وهلة انها طائرة ميغ روسية .

وبعد يومين جاءت الاخبـــار الوثيقة معلنة اسقاط طائرة بريطانية فوق الارض السورية من قبل طائرة سوفياتية .

والحقيقة التي ظهرت بعـــد ذلك انه لم تنزل في المطارات السورية اية طائرة سوفياتية .

وقد تأكد الجنرال بروهون من هذه الواقعة بعد ان أرسل مصوريه الطيارين الى مختلف المطارات السورية . أما السفن المحملة بالاسلحة ، والتي وصلت الى الموانىء السورية فهي سفن مرسلة منذ وقت بعيد عبر الاسكندرية .

واتخذ قادة الحلفاء احتياطات استثنائية سريعة وأمروا سفنهم بالابتعاد قليلاً عن الشواطىء المصرية استعداداً لمقابلة غواصات روسية منتظرة .

وهكذا بعدت سفينة القيادة التابعة للجنرال بوفر تسعة أميال عن الشاطىء وأمرت الدارعة جان بار بالرجوع الى مياه قبرس خوفاً من قاذفات ايليوشن الروسية التي قد تصل من القوقاز أو بلغاريا .

وقد استعاد الوزراء الفرنسيون آنئـذ بعض روعهم حين جاءتهم أخبار كاذبة تعلن ان بور سعيد قد استسلمت . فاعتقدوا ان احتلال بقية القناة سيتم خلال ساعات قليلة .

وقررت وزارة الخارجية ايقاظ السيد ايدن عند منتصف الليل ، وفي تمام الساعة الثانية والنصف بعد نصف الليل تم الاتصال التلفوني بين الرئيسين الفرنسي والبريطاني .

واعتقد الرجلان ان المقصود من هـذا التهديد الذري هو

الظهور أمام العرب بمظهر المحامي المخلص عن قضيتهم ، وقررا ضرورة الاتصـــال بوشنطن لمعرفة ما اذا كانت المظلة الذرية مضمونة لكل من باريس ولندن .

وسأل موليه ايدن عن أخبار حملة الانزال في القناة .

فما كان المسؤول أعلم من السائل .

باريس ولندن في عزلة تامة عن قبرص بعيد حلول مساء ٥ تشرين الثاني ، أي بعد وصول آخر خبر كاذب ينبىء باستسلام بور سعيد .

والحقيقة ان قيادة الحلفاء قد تابعت عملية الانزال ، وظن الناس في فرنسا ان القيادة قد تظاهرت بانقطاع المواصلات مع لندن وباريس لتكمل ما بدأته .

ومهما يكن الامر فقد ترك الرئيسان ايدن وموليه آلة الهاتف وهما في قلق شديد .

وفي الواحدة من بعد ظهر ٦ تشرين الثاني ، وبينما كان رئيس الوزراء الفرنسي يتناول طعامه مع السيد اديناور في حفلة تكريمية له جاءه من يخبره ان ايدن يطلبه على التلفون .

لقد قضي الامر وقرر ايدن ايقاف اطلاق النار ، فهو لم يعد قادراً عـــلى تحمل الضغط الذي يأتيه من هيئة الامم المتحدة وواشنطن وصفوف المعارضة في لندن ، مع العلم ان ايزنهاور قد أفهم الروس بان اميركا مستعدة لاعلان حرب ذرية ضدهم بعد القاء اول قنبلة ذرية فوق باريس أو لندن . كما انه أفهم باريس ولندن بان أميركا غير مستعدة لتأييد عدوانهم على مصر

فيما اذا انطلقت موجات المتطوعين من الروس لايقاف زحفهم وتحطيم قواتهم ، وعلى هذا فهما لا تستطيعان ان تعتمدا على اي تأييد اميركي في هذا السبيل .

كانت واشنطن تقول : أوقفوا اطلاق النار ، فلا يمكننا ان نبقى حلفاء وانتم على ما انتم عليه .

وهنا أصيب ايدن بالدوار حين تبين قرب حدوث القطيعة مع الولايات المتحدة .

وأعلن ايدن بالتلفون انه قد أبلغ كيتلي الامر بايقاف اطلاق النار عند الساعة الخامسة مساء .

واصيب الرئيس الفرنسي بالذهول ، لقد كادوا يقتربون من الهدف .

– ولكن ... أجّلْ تنفيذ الامر ٢٤ ساعة فقط بحيث نحقق القسم الأكبر من خطتنا ونعمل باوامر هيئة الامم .

– هذا مستحيل بسبب موقف اصدقائنا فيما وراء البحار .

وفي تمام الواحدة والنصف أبرق الجانب البريطاني الى كيتلي يقول له بالحرف الواحد :

« استعدوا لايقاف اطلاق النار عند الساعة الخامسة والنصف » (السادسة والنصف في بور سعيد) .

وكان ايدن قد سأل موليه عما اذا كان في مكنته ان يعلن عن ايقاف اطلاق النار باسم الحكومتين ؟

وفكر موليه قليلا ، فهو لا يسعه ان يتابع المعركة وحيداً ، لا سيما وانه كان قد تلقى منذ قليل دعوة من ايزنهاور للدخول

في مفاوضات ثلاثية : بريطانيا ، فرنسا ، اميركا ، لاعادة المياه الى مجاريها بين الحلفاء الثلاثة .

فاجاب : نعم ، باسم الحكومتين .

على انه كرر رجاءه في تأجيل وقف اطلاق النار بضع ساعات ليصبح الجميع على علم بالامر ،فوافق ايدن على تأجيله الى نصف الليل . وقال :

- نعم نصف الليل ، بالتوقيت البريطاني .

ولكن السيد ايزنهاور لم يلبث أن رجع عن دعوته بحجة ان الالتقاء لا يمكن ان يتم قبل التنفيذ التام لقرارات هيئة الامم المتحدة ، وان اي موقف آخر سيجد معارضة شديدة وسوء فهم في كل من الولايات المتحدة وبقية بلدان العالم . والمقصود ببقية البلدان طبعاً هو البلدان الأسيوية والأفريقية .

والواقع ان السيد موليه لم يفهم الأمر كما حدث تماماً ،فايدن هو الذي طلب من ايزنهاور تنظيم هذا الاجتماع بعد ان اكد له استعداده لوقف اطلاق النار .

وعلى كل حال فان الخارجية الاميركية قد بعثت برسالة الى ايدن تشرح له فيها موقفها قائلة : ان مثل هذا الاجتماع السريع سيعرض اميركا لاتهامات شديدة من قبل البلدان العربية ، تجعلها متواطئة مع الخاطئين الذين شجبت الامم المتحدة عدوانهم على مصر .

وفي الساعة ١٥ و١٩ دقيقة ابرق المكتب الحربي في لندن الى القيادة في قبرص :

- «ساعة ايقاف اطلاق النار لم تعد الخامسة بل اجلت الى ٢٣،٥٩ من المساء .

نحن موافقون على ان تستولوا على اكبر جزء من الارض ممكن في اتجاه الجنوب .»

كانت القيادة الحليفة في أرض مصر قد قررت الاتجاه نحو الجنوب عند الساعة العاشرة مساء بعد تجميع القوى اللازمة لذلك .

ولكن الجنرال ماسو قد ذهل حين علم بأمر ايقاف اطلاق النار قبل حلول الوقت بساعة واحدة وتسع وخمسين دقيقة .

فانفجر وخرج من غرفة مكتبه وانطلق الى جنوده يطلب اليهم متابعة الزحف . وفي الساعة ٢٣،١٢ وصل امر من الجنرال ستوكويل الى سيارة القيادة يقول :

- «لا تقوموا بأي تقدم نحو الجنوب» .

واخيراً تلقى السيد ايدن وهو يغادر «وستمنستر» برقية من قبرص بعد انقطاع دام خمسين ساعة تقول : توقف التقدم الحليف عند ضواحي القنطرة !

لقد كانت هذه آخر الطلقات .

وهنا لم يكن يدور في خاطر ايدن : الرجل الذي أسكرته الحمى ، وحطمته المرارة ، واهلكه الانهاك غير فكرة واحدة : الابحار الى جزيرة يستطيع فيها ان ينام ١٥ نهاراً و ١٥ ليلة .

وهكذا انتهت حياة دبلوماسي من أكبر دبلوماسيي العالم .

ولم تؤجل استقالته قليلاً الا للحيلولة دون ان تكون هدية

مقدمة الى السيد جمال عبد الناصر .

ورجع ايدن بعد فترة الاستجمام الى لندن محتفظاً بمقعده عدداً قليلاً من الاسابيع ، ثم رفع استقالته الى الملكة بعد ان أنذره أطباؤه بتزايد احتمالات الخطر على حياته . فانتهت في بريطانيا صفحة من الصفحات ، وفتحت صفحة جديدة .

فهرست

صدر حديثاً

●

		ق.ل.
– هكذا يضيع الشرق الاوسط	لألفرد ليلينتال	٣٠٠
– ضد التعذيب في الجزائر	لبيير – هنري سيمون	١٠٠
– اللعب بالنار	لجيمس فورستال	٧٥
– ديناميت في الشرق الأوسط ١	للدكتور خليل طوطح	٧٥
– ديناميت في الشرق الأوسط ٢	« « «	٧٥
– اسرائيل جريمتنا	للدكتور ميلر بورروز	٧٥
– هذه هي الديمقراطية	للرئيس ادوار بنيش	٢٠٠
– عالمان	لوليم زيف	٢٠٠
– الثلاث الكبار	لدد. دالين	٢٠٠
– ساعة الحسم	لصمنر ويلز	٢٠٠
– قصة الاستقلال في سوريا ولبنان	لليدي سبيرز	٢٠٠
– سأتكلم بصراحة	لجيمس برنز	٢٠٠
– سحابة بورتسموث	لصدر الدين شرف الدين	٢٠٠
– لافال يتكلم	لبيير لافال	٢٠٠
– كنت جاسوسة عند ستالين	للسيدة ماسينغ	١٠٠
– تعال معي إلى موسكو	للجنرال بيدل سميث	١٠٠
– كنت ظلاً لتشر شل	ه. طومبسون	١٠٠
– أنا عائد من مراكش	لروم لاندو	١٠٠
– ترجمان هتلر يتكلم	للدكتور شمت	١٠٠
– مذكرات هتلر	جمعها مارتن بورمان	١٠٠

الثمن ١٥٠ ق.ل. او ما يعادلها

مطابع دار العلم للملايين
بيروت